الأنس والونس

تأليف: وفاق علي خمير

تحت إشراف: هيثم العنابي
إليانا الزعبي

فريق رؤية المحترف والإبداع

©جميع الحقوق محفوظة (1446/2025)

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة.

لا يجوز نسخ أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه في نظام استرجاع أو نقله بأي شكل أو بأي وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو التصوير، أو التسجيل، أو خلاف ذلك، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

All rights reserved.

No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without prior written permission from the publisher.

الإهداء

لِكُلِّ العَابِرِينَ بِهَذِهِ الحَيَاةِ، لِمَن رَافَقَ الوُدُّ قُلُوبَهُم، فَكَانَت بِصُحبَتِهِمْ تَهونُ الصِّعَابُ.

لِكُلِّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ فِي رِحلَةِ الصِّرَاعِ الدُّنيَوِيِّ.

وإِهْدَائِي الخَاصُّ يَكُونُ لِكُلِّ مَن صَحِبَنِي فِي هَذِهِ الحَيَاةِ بِالْمَعْرُوفِ، وَمَدَّ يَدَ العَونِ وَالدَّعمِ، وَلِكُلِّ مَن أَسقَى مَوهَبَتِي مَاءَ العَطَاءِ، وَآمَنَ بِأَنَّنِي سَأَخطُّ حُرُوفًا تَنسُجُ شُعَاعَ أَمَلٍ.

إِلَى أَبِي وَأُمِّي، وَإِخوَتِي، وَصُحبَتِي الأُولَى فِي الحَيَاةِ ... لَكُمْ الحُبُّ.

المقدمة

لكلِّ إنسانٍ، في مرحلةٍ ما وهو يشقُّ سبيله في الحياة، كعابرٍ، تكونُ في انتظاره عقباتٌ وَعِرة، تكشفُ له بصُحبةِ مَن هو؟

وإني أؤمنُ بأنَّه لا بُدَّ من وجودِ وقودٍ لكي تستمرَّ الرحلة، وإنَّ وقودَ الإنسانِ يكونُ في صُحبته.

فإنْ كانتْ له صُحبةُ خيرٍ، أحاطوا روحَه باللطفِ والوُدِّ والمحبَّةِ في أحنَكِ الظروفِ وأقسَاها، فَسَوفَ يحيَا بِشَغَفٍ، ويسكُنُ قَلبَهُ السَّلام...

وإنَّ لنا دينًا يَحثُّ على المحبَّة، بل إنَّ مضمونه يتمحورُ حولَ الحبِّ والوُدِّ، وحُسنِ المُعاملةِ والمَعشر...

(٦)

ما معناها؟

يا صاحِبِي...

لا أقولُها من عَدَمٍ، فـ "صاحِبِي" ليست حُروفًا عَبَثِيَّةً تُقالُ فَحَسب، صاحِبِي مَن صادَقَ الرّوحَ بِصِدقِهِ، وألِفَتهُ بِحُسنِهِ.

صاحِبِي... ذاكَ الّذي يُؤمِنُ بِقُوَّتِي، ويُعَزِّزُ مِن إرادَتِي، مَن يَدْفَعُنِي نَحوَ الأَمَلِ ولو كانَ نافِذًا مِن ثُقبٍ وَسطَ عالَمٍ مَلِيءٍ بِالسَّوادِ.

صاحِبِي... مَن أَذهَبُ إِلَيهِ وَرَأسِي مُثقَلٌ، وَقَلْبٌ وَهِن، فَأَعُودُ مِنهُ بِرَأْسٍ يَملَؤُهُ الصَّفاءُ، خَفِيفٍ كَخِفَّةِ الرِّيشَةِ، وَقَلْبٍ يُدفَقُ بِنَبَضاتٍ تُعانِقُ الحَياةَ حُبًّا وَانسِجامًا.

صاحِبِي... مَنِ اسْتَفقَدَنِي وأنا في حَضرَةِ الغِيابِ، مَنِ التَمَسَ لِي العُذرَ حينَ أَخَذَتنِي خُطايَ بَعِيدًا عَنهُ.

صاحِبِي... مَن شَدَّ حَبلَ وِصالي حينَ أَفلَتُّهُ أنا، مَن حافَظَ على البَقاءِ حينَ غادَرَتني نَفسي فَلَم يُغادِرني هُوَ.

صاحِبِي... مَن آمَنَ بِمَواهِبِي حينَ كانَ يَراها الآخَرُونَ مَجَرَّدَ تُرَّهاتٍ، مَن قالَ لِي: "حاوِل مَرَّةً أُخرَى، فَإِنَّ وَراءَ كُلِّ فَشَلٍ دَرسًا، وَوَراءَ كُلِّ دَرسٍ نَجاحًا."

صاحِبِي... مَن أَمسَكَ بِيَدِي وَشَدَّ عَلَيها،
وَلَم يَترُكها رَغمَ بُعدِ المَسافاتِ وَكَثرَةِ العَقَباتِ.

صاحِبِي... مَن سَكَنَ قَلبِي وَسَكَنتُ روحَهُ دونَ أَسبابٍ أَو مُسَبِّباتٍ.

صاحِبِي... مَن آنَسَت بِهِ الرّوحُ وَاستَأنَسَت وَإِن لَم يَكُن حاضِرًا.

صاحِبِي... مَن يُجالِسُنِي بِالصَّلاحِ وَالخَيرِ،
وَيُشارِكُنِي في مَجالِسَ فِيهَا فَلاحُ الدُّنيا وَالآخِرَةِ...

يقولُ النَّبِيُّ الكَرِيمُ، الرَّسُولُ الخاتَمُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السُّوءِ، كَحامِلِ المِسْكِ وَنافِخِ الكِيرِ، فَحامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبتاعَ مِنهُ، وَإِمَّا أَن تَجِدَ مِنهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنهُ رِيحًا خَبِيثَةً." (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

صاحِبِي... يَكُونُ جَنَّةَ الدُّنيا.

فَأَينَ أَصحابِي ؟! فَإِنِّي قَد أَضَعتُ الطَّرِيقَ إِلَيهِم...

✦ ✦ ✦

(2)

"هي فانية"

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

[الأنعام: 32]

يا صاحِبي...

لا تُكَدِّر صَفوَ عَيشِكَ، لا تُلقِ لِعَثَراتِها المُتَكَرِّرَةِ بالًا، فَقط قُم وَانهَض مِن جَدِيدٍ بَعدَ كُلِّ تَعَثُّرٍ فِيهَا، وَأَكمِلِ المَسِيرَ... فَهِيَ فَانِيَةٌ.

سِر فِيهَا بِاعتِدَالٍ، فَلا تُصَعِّر خَدَّكَ لِلنَّاسِ تَكَبُّرًا وَتَعَاظُمًا بِنَفسِكَ، وَلا تَمشِ مَذلُولًا حانِيَ الرَّأسِ... فَهِيَ فَانِيَةٌ.

صافِح كُلَّ يَدٍ تَمتَدُّ لَكَ لِمُصَافَحَتِكَ، دُونَ أَن تَنظُرَ إِن كانَت لِوَفِيٍّ أَو لِخائِنٍ غَدَّارٍ، فَلَكَ مِنَ النَّاسِ الظَّاهِرُ وَمَا يُبدُونَهُ لَكَ، وَأَمَّا البَواطِنُ فَاللهُ بِهَا أَعلَمُ، وَيَكْفِيكَ اللهُ شَرَّهَا.

وَأَلْقِ السَّلَامَ عَلَى الجَمِيعِ، العَدُوِّ وَالصَّدِيقِ... فَهِيَ فَاتِيَةٌ.

ازرَع شَجَرَةً ذَاتَ ثِمارٍ وَظِلٍّ،

حَتَّى إِذَا رَحَلتَ أَنتَ، بَقِيَت هِيَ سَبَبًا يُلْحِقُ لَكَ الرَّحمَةَ، حِينَ يَستَظِلُّ بِظِلِّهَا العَابِرُونَ، وَيَشبَعُ بِثِمَارِهَا الطَّيرُ وَالمَارُّونَ.

قَالَ لِي أَحَدُهُم يَومًا: "إِنَّ الكَلِمَةَ سَتَخْرُجُ مِن بَيْنِ شَفَتَيكَ، وَسَيَنطِقُ بِهَا لِسَانُكَ حَتمًا، فَدَعها تَخرُجُ مِنكَ بِأَحلَى طَرِيقَةٍ، وَفِي أَجمَلِ مَا يُمكِنُ أَن تَكُونَ عَلَيهِ".

خُذْ هَذَا مِنهَاجًا، وَتَذَكَّرْ أَنَّهَا... فَانِيَةٌ.

يا صاحِبي...

افعَل خَيرًا، وَلا تَلتَفِت إِلَيهِ،

فَإِنَّهُ سَيَعُودُ إِلَيكَ مُضَاعَفًا، دُونَ أَن يُخْطِئَ الطَّرِيقَ إِلَى قَلبِكَ.

وَلَكِن...

إن فَعَلتَ الشَّرَّ، فَلا تَغفُل عَينُكَ عَنهُ،

بَل تَتَبَّعهُ وَأَصلِحهُ قَبلَ أَن يَعُودَ إلَيكَ بِدَمَارِكَ وَدَمَارِ نَسلِكَ وَدَمارِ آخِرَتِكَ...

وَتَذَكَّر أَنَّها فَانِيَةٌ.

يا صاحِبي...

لَو صَعِدتَ إلَى السَّمَاءِ بِسُلَّمٍ، فَلَن تأخُذَ إلَّا مَا كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، فَلِكُلٍّ مِنَّا نَصِيبٌ، وَمَا عَلَيكَ إلَّا السَّعيُ بِمَا يُرضِيهِ، وَالرِّضَا بِأَقدَارِهِ.

فَمَن رَضي بِقِسمَتِهِ، نَالَ نَعيمَ الدُّنيا والآخِرَةِ، وَمَنِ اعتَرَضَ، أَصابَهُ كُلُّ شَقَاءِ الدُّنيا ... إنَّهَا فَانِيَةٌ.

يَا صَاحِبِي...

الدُّنيا مِثلُ حُلُمٍ يَزورُ النَّائِمَ، فَلا يَخدَعكَ طُولُ الزَّمَانِ فِيهَا، وَلا تأمَن بِمَلَاذِهَا، وَلا تَثِق بِتَحالُفِ دَهرِها مَعَكَ... وَتَيَقَّن أَنَّهَا فَانِيةٌ.

✦ ✦ ✦

(3)

"بيضاءُ من غيرِ أذًى"

يا صاحِبي...

أنا معَكَ، وبِجانِبِكَ، هذِهِ يَدِي لا تُمدُّ إلَّا وهيَ بَيضاءُ بِغَيرِ سوءٍ ولا أذًى، لا تُمدُّ لَكَ إلَّا وهيَ تَحمِلُ السَّلامَ مِنِّي إلَيكَ وعَلَيكَ.

تَمَسَّك بها حتَّى لا يُلاحِقَنا التِّيهُ في الدُّروبِ المُلتَوِيَةِ، وإن تُهنا، سَأَكُونُ أُنسًا لَكَ في المُتاهَةِ، وَسَتكونُ الأُنسَ لوَحشَةِ رُوحِي فِيها.

يا صاحِبي...

أنا معَكَ، وبِجانِبِكَ، فَإِنْ تَشَتَّتَت دُروبُنا، تَشابَكَت قُلوبُنا، فَما مِن حُبٍّ في اللهِ تَقَطَّعَت أوصالُهُ، وما مِن حُبٍّ في اللهِ تُهدَرُ مَشاعِرُهُ فِي الهِجرانِ والفَقدِ.

يا صاحِبي...

أنا معَكَ، وبِجانِبِكَ، حَتَّى وإن باتَ لِقاؤُنا قَليلًا، حَتَّى وإن لَم نَلتَقِ، فَأنتَ تُشارِكني خَلْوَتي مَعَ اللهِ بِدُعاءٍ، وأذْكُرُكَ في حديثِ مَساءٍ عامِرٍ بِذِكرِ أَصحابِ القُلوبِ التي يَسكُنُها النَّقاءُ، ويَكسُوها الصَّفاءُ.

يا صاحِبي...

أنا معَكَ، وبِجانِبِكَ، فلا تَترُك يَدِي، فَإنِّي أحتاجُ التَّمسُّكَ بِيَدِكَ، لِتَحميَ قَلبِي مِن الشَّتاتِ والضَّياعِ، فِي زَمنٍ كَثُرَت فيهِ سُبُلُ التَّشتُّتِ.

أحتاجُ إلَيكَ، لِتَقيَ رُوحِي حِيرَةَ التَّرَدُّدِ وَالتَّخَبُّطِ فيهِ.

هاتِ يَدَكَ، وكُنْ دَليلِي إلى النَّجاةِ، إلى بَرِّ الأمانِ، إلى حيثُ يكونُ الصَّعبُ بِوُجودِكَ سَهلًا هَيِّنًا.

يا صاحِبي...

خُلِقْنا في هذِهِ الحياةِ لِنَتَشارَكَ دُروبَها، لِيُكَمِّلَ كُلٌّ مِنَّا الآخَرَ، لِتَتَقاطَعَ سُبُلُنا،

ونَمضِي فيها معًا.

يا صاحِبي...

إنَّ السَّلامَ في هذِهِ الحياةِ يَبزُغُ حينَ تَتآلَفُ أَرواحُنا، فَيُصبَغُ على سُلوكِنا الرِّفقُ، وإعلَم أنَّ الوُدَّ بَينَنا مِن الإيمانِ...

كُنْ على مَوعِدٍ معي دَائِمًا، حَتَّى وإنْ قَلَّ اللِّقاءُ، وَتَذَكَّر أنَّني بِجانِبِكَ، ومَعَكَ.

(4)

"أنْ نَكونَ مَعًا"

يا صاحِبي...

لِتَعلَمَ أنَّ الهِجرانَ مِن غَيرِ سَبَبٍ أرحَمُ مِن الهِجرانِ لِأَتْفَهِ سَبَبٍ، وَلِتَعلَمَ أنَّ لِلغِيابِ مُبَرِّراتٍ، ولكن... عَدَمَ سُؤالِكَ عَن غِيابي لا مُبَرِّرَ لَهُ.

وَلِتَعلَمَ أنَّ تَجاوُزَكَ عَنِ المُشاحَناتِ الصَّغيرَةِ بَينَنا، لِتَقِفَ مَعي في مِحنَتِي الكَبيرةِ، هُوَ أعظَمُ مُواسَاةٍ لي، وسأحفَظُ لَكَ هذا ما دُمتُ أَتَنَفَّسُ.

يا صاحِبي...

يُشتَرى خَاطِرُ الإنسانِ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، تَرفَعُ بِها عَنِّي حِملًا ثَقيلًا، وَأحفَظُ بِها لَكَ مَكانَةً عالِيَةً في القَلْبِ.

ولا تَنسَ أنَّ أحَبَّ النّاسِ إلى اللهِ: أنفَعُهُم لِلنّاسِ.

ولكن...

وَضعُكَ لِصَغائِرِ الأُمورِ الدَّنِيئَةِ سَدًّا يَمنَعُكَ عَن مُواساتي فِي مُصيبَتِي وأنتَ تَعلَمُها، تِلكَ نُقْطَةٌ سَوداءُ لا تُغتَفَرُ، وَعَيْنٌ تَنضَحُ بِالحُزنِ في أَعماقِي ولا تُغلَقُ.

يا صاحِبي...

لا خَيرَ في الغِيابِ،

لا خَيرَ في الهِجرانِ،

الخَيرُ، وكُلُّ الخَيرِ، أن نَكونَ مَعًا.

نَمضِي في سَبِيلٍ طَويلٍ، بِرُفقَتِكَ يَقصُرُ، ونَمضي في دُروبٍ وَعِرَةٍ، بِرُفقَتِكَ تَهُونُ.

الخَيرُ، كُلُّ الخَيرِ، أن نَكونَ مَعًا، يا صاحِبي...

(5)

"الحياةُ مَعرَكَةٌ"

يا صاحِبي...

إنَّ مَعارِكَ الحَياةِ كَثِيرَةٌ، قاسِيَةٌ، وَصَعبَةٌ، تَحتاجُ إلى يَدٍ تُمسِكُ بِيَدِي لِتَدْعَمَنِي، وإلى يَدٍ خَلْفَ ظَهْرِي لِتَدْفَعَنِي، وتَحتاجُ إلى شِفاهٍ تَنْبِسُ بِالكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ لِأَستَمِرَّ.

إنَّ مَعارِكَ الحَياةِ تَحتاجُ لِأَن تَكونَ مَعي، فَحينَ تَكونُ يَدُكَ بِيَدي، يَكونُ خَوضُ مَعارِكِها أَسهَلَ، وَالظَّفَرُ بِها أَضمَنَ، والنَّجاحُ فِيها مُضاعَفٌ، وَإِن خَسِرتُها، تَكونُ مُواسَاتُكَ المِسكَنَ وَالمَرهَمَ الشَّافِي.

إنَّها دارُ شَقَاءٍ وَصِراعٍ، دارُ ابتلاءٍ وَاختِبارٍ، دارُ عَمَلٍ يَتَطَلَّبُ قَلْبًا قَوِيًّا عامِرًا بِالإِيمانِ، وَصُحبَةً صالِحَةً تُعينُنا على مُعتَرَكاتِها الدّامِيَةِ لأرواحِنا، والمُستَنزِفَةِ لِصَبرِنا.

كما قالَ رَسُولُنا الكَرِيمُ -صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ: "الدُّنْيا سِجنُ المُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الكَافِرِ."

(رواهُ مُسلِم)

هِيَ سِجنُنا لِما فِيها مِن أَهوالٍ وَفِتَنٍ تُحارِبُ دِينَنا، ويَجِبُ عَلَينا مُجابهَتُها والصَّبرُ فِيها.

يا صاحِبي...

إِنَّ دَربًا طَوِيلًا وَعِرًا تَملَؤُهُ العَقَباتُ، يَكونُ أَقَلَّ مَشَقَّةً في تَجاوُزِهِ حينَ تَكونُ مَعي، وإِنَّ دَربًا قَصِيرًا سَهلًا، مُسَطَّحَةً أَرضُهُ، مُضِيئَةً سَماؤُهُ، يَكونُ أَكثَرَ وَحشَةً، وَأَسِيرُ فِيهِ مُتَعَثِّرَ الخُطى، مُتَثاقِلَ الجَسَدِ، حينَ لا تَكونُ مَعي.

يا صاحِبي...

لا تُفلِت يَدي، فَأَكُونَ بِذَلِكَ فَرِيسَةً لِلتَّشَتُّتِ وَالضَّياعِ، واقِعًا ضَحِيَّةً بَينَ التَّرَدُّدِ وَالحِيرَةِ.

يا صاحِبي...

لِنَكُن ثَلاثَةً: أَنا، وَأَنتَ، وَثالِثُنا اللهُ، يَرعانا بِعُيُونِ السَّلامِ.

وَالسَّلامُ لِرُوحِكَ، يا صاحِبي...

✦ ✦ ✦

(6)

"وَصَايَا"

يا صاحِبي...

نَحنُ خَطاؤونَ، هكَذا هي طَبيعَتُنا البَشَريةُ، نَرتَكِبُ الأَخطاءَ في كُلِّ يومٍ، وَلِكُلِ خَطأٌ ثَمَنٌ، وَلِكُلِ ثَمَنٍ مَشَقةٌ، فَعَليكَ أَن تَكونَ مَسؤُولًا كُلَّ المَسؤُوليةِ عَن أَخطائِكَ، وَأَن تُؤَدي ثَمَنَها، وَلتَعلَم يا صاحِبي أَنَّ "خَيرَ الخَطَّائينَ التَّوَّابونَ."

يا صاحِبي...

إِنَّ مِن أَكبَرِ الأَخطَاءِ التي قَد تُكَلِفُكَ ثَمَنًا غَاليًا، هو الأستِهتارُ بِأَيِّ جانِبٍ مِن جَوانِبِ حَياتِكَ

استِهتارُكَ بِصِحتِكَ قَد يُكَلفُكَ حَياتَكَ، وَيَكونُ ثَمَنُهُ المَوتُ، فَاعمَلْ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البَقَرَةُ: 195).

استِهتارُكَ بِعَمَلِكَ ثَمَنُهُ البِطالَةُ، والبِطالَةُ ثَمَنُها الفَقرُ، وَالفَقرُ ثَمَنُهُ التَّشَرُدُ، فَكُن مِن المُخلِصينَ في عَمَلِكَ، فَإِنَّ العَمَلَ عِبادَةٌ، كَما قالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُ إِذا عَمِلَ أَحَدُكُم عَمَلًا أَنْ يُتقِنَهُ". (رَوَاهُ البَيهَقِيُّ).

استِهتارُكَ بِمَن حَولَكَ ثَمَنُهُ الوَحدَةُ الموحِشَةُ التي تَنهَشُ روحَكَ، فَتُعَلِقُكَ بَينَ الحَياةِ وَالمَوتِ.

الإهمالُ وَالاستِهتارُ، يا صاحِ، قَد لا يُؤذيكَ أَنتَ فَقَط، بَل قَد يُؤذي مَن تُحِبُّ، فَتَكونُ خَسارَتُكَ لا تُعَوَّضُ.

يا صاحِبي...

لا تَخطُ خُطوةً واحِدَةً إلا وَأَنتَ مَسؤُولٌ عَنها، فَرُبَما تَتَحَولُ هَفوةٌ غَيرُ مَسؤولَةٍ إلى جُرفٍ يُلقي بِكَ إلى الهَلاكِ.

يا صاحِبي...

أُوصيكَ وَأُوصي نَفسي بِالصِّدقِ، فَإِنَّ فِيهِ النَّجاةَ، كَما قالَ نَبِيُّنا ﷺ: "إِنَّ الصِّدقَ يَهدي إلى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهدي إلى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصدُقُ حَتى يُكتَبَ عِندَ اللَّهِ صِديقًا."

(مُتَّفَقٌ عَلَيهِ).

وَقالَ أَيضًا: "دَع ما يُرِيبُكَ إلى ما لا يَرِيبُكَ، فَإِنَّ الصِّدقَ طُمَأنِينَةٌ، وَالكَذِبَ رِيبَةٌ." (رَوَاهُ التِّرمِذِيُّ).

لَيسَ خَلاصُنا يا صاحِبي إلا بِالصِّدقِ في القَولِ، حَتى وَإِن كانَت نَتائِجُهُ لا تُرضينا، فَإِنَهُ طُمأنِينَةٌ لِلنَفسِ، وَسَكِينَةٌ لِلروحِ، وَمَرضاةٌ لِلَّهِ.

إِنَّ ما قَد تَخسَرهُ بالكَذِبِ سَيَكونُ أَعظَمَ وأَوجَعَ مِما تَخسَرُهُ بِالصِّدقِ، وَلَو كانَ ثَمَنُ الصِّدقِ حَياتَكَ، فَما أَجمَلَ أَن تَموتَ مُطمَئِنَّ النَّفسِ، مُرتاحَ الضَّمِيرِ، ساكِنَ الرُّوحِ، عَلى أَن تَحيا حَياةً يَملَؤها الكَذِبُ، فَيَسكُنُ الخَوفُ وَالشَّكُ قَلبَكَ، وَمَن سَكَنَ قَلبَهُ الخَوفُ وَالشَّكَ، فَلَن يَجِدَ لِلحياةِ طَعمًا وَلا مَلاذًا.

فَالصِّدقُ نَجاةٌ، وَإِن أدرَكَكَ المَوتُ، وَالكِذبُ هَلاكٌ، وَإِن عِشتَ... وَإِيَّاكَ وَالإستِهتارَ، يا صاحِبي، فَإِنَّ فِيهِ مِن الأَذى ما لا يُمكِنُ تَرميمُهُ...

✦ ✦ ✦

(7)

" كُنْ مَعَ اللهِ"

يا صاحِبِي...

لأَنَّني أُحِبُّكَ، وَلِأَنَّكَ تَسكُنُ الرُّوحَ، أَكتُبُ إِلَيكَ هذِهِ الحُرُوفَ بِدَافِعِ المَحَبَّةِ والوُدِّ...

يا صاحِبِي...

أَصلِح حالَكَ مَع الله، يُصلِح لَكَ الدُّنيا وَمَا فيها، سِر فِي السَّبيلِ الَّذي تشاءُ، وَمهما كَانَ مُعتِمًا، وَمهما اشتَدَّ الظَّلامُ فِيهِ، فَطالَما حُبُّ اللهِ يَسكُنُ شِغافَ قَلبِكَ، فَإِنَّ النُّورَ سَيأتيكَ ولو مِن بينِ الشُّقُوقِ.

فَلَا تَيأَس، وَلَا تَتَذَمَّر...

يا صاحِبِي...

لَا سَلامَ إِلَّا فِي الرِّضَا، فَإِن سَكَنَ الرِّضَا روحَكَ، فُزتَ بِحَلاوَةِ الدُّنيا، واعلَم أَنَّ الرِّضا بِقَدَرِ اللهِ رُكنٌ مِن أَركانِ الإِيمانِ، فَلَا تَحزَن عَلَى مَشيئَةِ اللهِ، حَتَّى في البَلاءِ، فَإِنَّ وَرَاءَ كُلِّ بَلَاءٍ دَفعًا لِبلاءٍ أَعظَمَ...

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 216).

يا صاحِبِي...

شُدَّ وِصَالَكَ بِخالِقِكَ، وَلَا تُفلِت يَدَكَ، فَإِنَّكَ بِذَلِكَ تأمَنُ عَلَى نَفسِكَ مِن مُغرِياتِ الدُّنيا، وَمَصائِبِ الدَّهرِ...

وَفِي الخِتامِ...

أُزِفُّ لَكَ أَحرُفًا مِنَ السَّلامِ، تُصيغُ كَلِماتٍ يَملَؤُها وُدٌّ صادِقٌ، مَنبَعُهُ قَلبي...

وَلَكَ السَّلَامُ...

(8)

ما لا طاقَةَ لي بِهِ"

يا صاحِبي، لا تَحمِلني ما لا طاقَةَ لي بِهِ، إن رَأَيتَني مُنطَفِئًا، لا أُجادِلُكَ ولا أَتفاعَلُ مَعَكَ.

إن رأَيتَني بارِدًا كَقِطعَةِ ثَلجٍ، صامِتًا

كالجُدرانِ، حاضِرًا مَعَكَ جُثَّةً، غائِبًا عَنكَ عَقلًا وروحًا.

لَا تَظُنَّ بِي الظُّنونَ، لا تَسمَح لِخيالِكَ وَمَشاعِرِكَ أَن تُحِيكَ الحِكايَا وَتنسِجَ القِصَصَ الَّتي لَا وُجودَ لَهَا.

فلا تَقُل بِأَنَّني أُريدُ الرَّحيلَ، ولا تَقُل بِأَنَّني أُمَهِّدُ لِلنَّفيرِ، لا تَقُل بِأَنَّ أَمرَكَ لَم يَعُد يُهِمُّني، وأَنَّني لَستُ لِسَابِقِ عَهدي مَثيلًا.

لَا تَربِط انطِفَائِي بِوجودِكَ مَعي أَبدًا.

فأَنتَ بَريءٌ مِمَّا أَنا فِيهِ حَتَّى وَإِن كانَ فِي تَصَرُّفاتي مَا يُدينُكَ.

يا صاحِبي، إِنَّ لَكَ فِي القَلبِ مَنزِلَةً مَصُونَةً لَا تَتَغَيَّرُ وَإِن تَغَيَّرَ الزَّمانُ والمَكانُ، وإِن تَغَيَّرتُ أَنا.

لَكَ فِي الرّوحِ نِصفَها، وَلَكَ فِي العَينِ نُورَها، وَلَكَ فِي الجَسَدِ اليَدَ والرِّجلَ.

فَإن غِبتَ أَو هَجَرتَ أَو رَحَلتَ، عِشتُ النّاقِصَ الأَعمى والأَعرَجَ بِرِجلٍ وَاحِدَةٍ، فَتَخَيَّلِ الحياةَ بِهَذِهِ الصِّفاتِ ؟

يا صاحِبِي، لا تَحمِلني ما لا طاقَةَ لي بِهِ، وَترحَل وَتَترُكَني فِي الظَّلامِ.

فَحِينَ أَنطَفِئُ، كُن لي موقِدًا يُمنِحُني النّورَ وَالدِّفءَ مَعًا.

يَكفِي أَن تُمسِكَ بِيَدي وَتمنِحَني كَتِفَكَ لِأُلقي عَلَيهِ ثِقلَ رَأسِي.

يا صاحِبي، كُن لِي صاحِبًا فَقَط، هَذَا مَا أُرِيدُهُ.

(9)

"إِنَّهُ لَا يَنسَى"

يا صاحبي، أَتَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ يَنساكَ ؟

إِنَّ اللَّهَ لَا يَنسى عِبادَهُ، إِنَّهُ لا يَغفُلُ عَنكَ أَبدًا، وَيَعلَمُ ما يَدورُ بِجوفِكَ وَما يَدورُ حولَكَ، علَّامٌ بِمَا تُخفي فِي صَدرِكَ وَبَينَ ضُلوعِكَ، إِنَّهُ يدرك بِما يُفَكِّرُ بِهِ عَقلُكَ قَبلَ أَن تُفَكِّرَ فِيهِ.

لا يخفى عَلَيهِ ضَعفُكَ وَعَجزُكَ وَقِلَّةُ حيلَتِكَ فِي عالَمٍ امتَدَّت فِيهِ جُذورُ الظُّلمِ والتَّسَلُّطِ.

يا صاحِبي، إِنَّ اللَّهَ لَا يَخفى عَلَيهِ بُكاءُ روحِكَ وَصُراخُهَا الصَّامِتُ فِي دُنيا غَيَّمَت بِالخَيباتِ وَالخُذلانِ، وَإِنَّهُ يَرَى دُمُوعَكَ الَّتِي تَروِي وِسَادَتَكَ فِي كُلِّ لَيلَةٍ بِسَبَبِ الفَقدِ وَالحِرمَانِ.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخفى عَلَيهِ شَيءٌ مِمَّا حَدَثَ لَكَ وَلَو كَانَ مِثقالَ ذَرَّةٍ.

يا صاح، وَإِن تَخَلَّى عَنكَ الجَمِيعُ وَهَجَرَكَ كُلُّ مَن حَولَكَ، وَإِن كُنتَ وَحِيدًا بَينَ الجُموعِ، فَتَذَكَّر أَنَّ اللَّهَ بِجانِبِكَ، مَعَكَ لَا يَتَخَلَّى وَلَا يَغفُلُ.

وإذَا أَغلَقَ الجَمِيعُ أَبوَابَ الوَصلِ فِي وَجهِكَ، فَتَذَكَّر أَنَّ بابَهُ لَا يُغلَقُ أَبَدًا.

إن عُدتَ مُحَمَّلًا بِالخَجَلِ والخُذلانِ بَعدَ سُؤالِكَ لِأَحَدِهِم حاجَتَكَ، فَتَذَكَّر أَنَّ اللَّهَ لَا يَرُدُّ سَائِلًا وَلَا يَنهَرُهُ، وَأَنَّهُ يَقضِي حَوَائِجَكَ جَمِيعَهَا.

إِنَّ اللَّهَ سَمَّى جَلَالَهُ بِالرَّحمَنِ الرَّحِيمِ، فَكَيفَ لَا يَرَاكَ بِعَيْنِ الرَّحمَةِ؟

يا صاحِبِي، كُن واثِقًا مِن عَوَضِ الله عَن كُلِّ شَيءٍ ظَنَنتَ أَنَّهُ لَا يُعَوَّضُ، سَيَجبُرُ روحَكَ المُنكَسِرَةَ، وَيَقبَلُكَ عَلَى حالِكَ، فَقَطِ اعُد إِلَيهِ خاضِعًا، ذَليلًا، تائِبًا، مُنصاعًا لِأَمرِهِ.

وَتَذَكَّر أَنَّ كُلَّ مَا يَحدُثُ لَكَ هُوَ لِحِكمَةِ اللَّهِ، هُوَ أَعلَمُ بِهَا وَأَدرَى، فَإِن عَجَزتَ عَن إِدراكِهَا، فَعلَيكَ أَن تُدرِكَ أَنَّهُ قَدَرُ اللَّهِ وَتُؤمِنَ بِهِ.

ازح عَن كاهِلِ قَلبِكَ ثِقلَ الحُزنِ، واعلَم أَنَّ اللَّهَ حَكيمٌ خَبِيرٌ مُدَبِّرٌ رَحيمٌ، وَكَفى بِذَلِكَ لِيَطمَئِنَّ قَلْبُكَ.

✦ ✦ ✦

(10)

"اعتَنِ بِها، هِيَ لا تُعَوَّضُ"

إنَّ لِلمَوتِ عِدَّةَ أَسبابٍ، وَمِنها وَجَعُ الرّوحِ في هذِهِ الحياةِ، وَهذا الأَقسى سَبَبًا، والأَكثَرُ أَلَمًا؛ فابتَعِد عَن كُلِّ ما يؤلِمُهَا وَلو كانَ قَريبًا، ولو كانَ حَبيبًا، ولو كانَ صَدِيقًا.

الكُلُّ يُعَوَّضُ، ولكِنَّ روحَكَ لا تُعَوَّضُ. روحُكَ واحِدَةٌ لا بَديلَ لَهَا. لَا أَقُولُ لَكَ: اقطَع صِلَةَ رَحِمِكَ، وَلَكِنِ ابتَرِ الخَبيثَ مِنهَا.

لَا أَقُولُ لَكَ: اهجُر صَدِيقَكَ، وَلَكِن لَيسَ صَدِيقًا مَن يؤذيكَ.

لا أَقولُ لَكَ: ارحَل عَن حَبيبِكَ، ولكِن مَن يُهلِكُ لَا يَستَحِقُّ قَلبَكَ.

يا صاحِبي، لِكُلِّ سَقَمٍ دَواءٌ، فاستَعِن بِاللَّهِ عَلَى كُلِّ شَيءٍ، واعمَل مَا بِمَقدُورِكَ عَمَلُهُ دُونَ زِيادَةٍ أَو نُقصانٍ، "فَلَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفسًا إِلَّا وُسعَهَا."

اعتَنِ بِنَفسِكَ جَيِّدًا، لا تُرغِمها على مَجالِسَ تُفقِدُكَ الحَسَناتِ.

لا تَسلُك طَريقًا يُثقِلُ كَتِفَكَ الأَيسَرَ سيِّئاتٍ.

لَا تُكمِل دَربًا لَا يُناسِبُكَ السَّيرُ فِيهِ، فالعَودَةُ مِنَ المُنتَصَفِ أَكثَرُ سَلامًا مِنَ الوُصولِ إِلى نِهايَةٍ لا تَرضيكَ وَلَا يَرتاحُ فيها قَلبُكَ.

السَّلَامُ لِرُوحِكَ، والأَمَانُ لِقَلبِكَ يا عَزيزي.

✦ ✦ ✦

(٦١)

"لَكَ السَّلَامُ"

يا صاحِبي، لَكَ السَّلامُ أَوَّلًا وآخِرًا.

قَد يَنالُ التَّعَبُ مِن جَسَدِكَ، قَد تُصابُ روحُكَ بِالهُزالِ، قَد يَتَسَلَّلُ الإحباطُ إِلَى عُروقِكَ، وَتوَدُّ العُزلَةَ أَكثَرَ مِن أَيِّ شَيءٍ آخر.

وَلَكِن لَا تقلَق، وَلَا تَرتاب نَفسُكَ، فَإِنَّ اللَّهَ يُغَيِّرُ مِن حالٍ إِلَى حالٍ، وَإِنَّ دَوامَ الحالِ مِنَ المُحالِ.

يا صاحِبي، إِنَّ اللَّهَ مَعَكَ، سَيُسَخِّرُ اللَّهُ لَكَ جُنودَهُ لِتَكونَ لَكَ عَونًا فِي سَبيلِكَ.

سَتَنهَضُ مِن جَدِيدٍ، وَتَنفُضُ غُبارَ اليأسِ مِن جَوفِكَ، وَتُسقِطُ ثِقلَ الأَفكَارِ المُرهِقَةِ عَن كَاهِلِكَ.

سَتَعودُ بَراعِمُ الأَمَلِ تَتَفَتَّحُ بَداخِلِكَ مِن جَدِيدٍ.

لَا تَجعَلِ اليأسَ يَستَحوِذُ عَلَى شِغَافِ قَلبِكَ، وَتَذَكَّر أَنَّ لَكَ رَبًّا كَرِيمًا، رَبًّا لَا يَعرِفُ المُستَحيلَ.

✦ ✦ ✦

(12)

"الكَلِمَةُ سِلَاحٌ"

يا صاحِبِي، أَنتَ أَلوانُ الرَّبِيعِ فِي حَياتِي، وَأَنا أُحِبُّكَ.

دَعنِي أُخبِرُكَ عَن سِلاحٍ ذِي حَدَّينِ: إن أَحسَنتَ استِخدامَهُ، عَمَّرتَ بِهِ العالَمَ، وَإِن أَسَأتَ استِخدامَهُ، دَمَّرتَ بِهِ حَياةً كامِلَةً.

يا صاحِبِي، كُن أَكثَرَ انتِباهًا لِلكَلِمَةِ الَّتِي يَنطِقُ بِهَا لِسانُكَ وَتَخرُجُ مِن شِفَاهِكَ، فَإِنَّ لِلكَلِمَةِ سَطوَتَهَا.

فَرُبَّمَا كَلِمَةٌ تَحَدَّثتَ بِها أَصابَت رُوحًا ذَابِلَةً، أَنهَكَها الخُذلانُ، واستَحوَذَ عَلَيها اليأسُ وَالقُنوطُ، فانتَعَشَت عَلَى إثرِها، وَتَحَوَّلَت، وَعَرَفَت سَبِيلَهَا إِلَى الحياةِ، تَملَؤُنا أَلوَانُ الرَّبِيعِ وَالسَّلامُ وَالعِمارُ.

وَرُبَّما كَلِمَةٌ تَنطَلِقُ مِن بَينِ شَفَتَيكَ كَالرَّصَاصَةِ، تَختَرِقُ بِهَا رُوحًا كَانَت فِي نَعيمٍ وَرَغيدٍ، وَكَانَ يَسكُنُهَا الأَمَانُ، دَافِئَةً بِالعَزيمَةِ والإصرارِ، فَتَتَحَوَّلُ بَعدَها إلى رَمادٍ، إلى رُوحٍ تَشتَهي المَوتَ، إلى شَبَحٍ يَتَجَوَّلُ فِي الأَزِقَّةِ بَينَ العَابِرِينَ.

يا صاحِبي، الكَلِمَةُ قَد تَبني إنسَانًا، وَبِنَاءُ الإنسانِ يَعمُرُ أُمَّةً كامِلَةً.

وَقَد تَهدِمُ بِالكَلِمَةِ إنسانًا، وَهَدمُ الإنسانِ يُخَرِّبُ بُلدانًا كانَت عَامِرَةً.

بِكَلِمَةٍ، إنْ أَحسَنتَ انتِقاءَ حُرُوفِها وَلَفظِها، وَالزَّمَنِ وَالظَّرفِ الَّذِي تَنطِقُها بِهِ، يَكُونُ نَتَاجُهَا إنسانًا سَوِيًّا، ذَا عِلمٍ وَخُلُقٍ.

وَإِنْ أَخطَأتَ فِي لَفظِها، واستَهَنتَ فِي اختِيارِ حُرُوفِهَا، وَخانَكَ الزَّمَنُ وَالظَّرْفُ فِي قَوْلِهَا، يَكُونُ الحَصَادُ إنسانًا يَمْلُ سُكْرًا، تَخطو خُطواتُهُ نَحوَ الفَشَلِ وَالضَّلالِ.

يا صاحِبي، لَا تَجعَل كَلِماتِكَ مَنبَعًا لِلفَسادِ، وَلَو بِقَليلٍ.

وَالسَّلَامُ لِرُوحِكَ، والحُسنُ لِكَلِماتِكَ...

✦ ✦ ✦

(13)

"هل لي من نجاة"

يا رَفيقَ الدَّربِ، يا صاحِبي، إنِّي أغرَقُ في بحرٍ من وَحلِ الدُّنيا، فهل لي من نَجاة؟

وإنَّ رُوحي قد تلاشى منها السَّلامُ، فهل لي من نَجاة؟

وإنَّ قَلبي قد غادَرَهُ الأمانُ، فهل لي من نَجاة؟

وإنِّي أتعَثَّرُ في الظُّلماتِ، أعمَى البَصِيرَةِ والبَصَرِ، فهل لي من نَجاة؟

وإنِّي توغَّلتُ في سُبُلِ الهوى، وصارَت نَفسي تَسيرُ خَلفَ أهوائِي، فجَرَّتني نحوَ الضِّياعِ، فهل لي من نَجاة؟

وإنَّ جَوارحي قد ضَعُفَت هِمَّتُها وفَقَدت عزيمَتَها، وانعَدَمَ الشَّغَفُ فيها على مَنصَّةِ الانغِماسِ في الشَّهَواتِ واللَّذَّاتِ، فبَاتَت هَشَّةً كَلُوحِ خَشَبٍ نَخَرت أليافَهُ المَاءَ، كَرَمَادٍ تَناثَرَت غُبَارُهُ في الأرجاءِ، فهل لي من نَجاة؟

يا صاحِبي، إنِّي أفقدُ الحياةَ وأنا على قَيدِ الحياةِ، فهل لي من نَجاة؟ قُل، يا رَفيقَ الدَّربِ، قُل لي يا صاحِ، هل لي من نَجاةٍ بعدَ كُلِّ ذاك؟

يا مُؤنسي، هَوِّن عليك، خَفِّف عن رُوحِك حَملَها، ويَكفي أن تَمُدَّ يَدَك وأنتَ الغَرِيقُ في بحرِ هُمومِك والعِصيانِ، وتَقُولُ: "يا الله" وتُناجِيه.

يَكفي أن تَقُولَ بقَلبٍ مُؤمِنٍ مُتَيَقِّنٍ تَائِبٍ وخَاضِعٍ إلى اللهِ: "لا إله إلا أنت سبحانك إنِّي كنتُ من الظَّالمين"، سَيَعُودُ السَّلامُ لروحِك، والأمانُ لقلبِك، وستتغلَّبُ على الهوى نَفْسُكَ حينَ تَستَعِيثُ باللهِ من شرِّها وشرِّ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ.

مَدَّ يَدَك إلى اللهِ، واضْرِبْ بَابَهُ في رَكْعَتَيْنِ عندَ جَوفِ اللَّيلِ، وسيَسْلِمُ اللهُ عَلَيْكَ بأسمائِهِ الحُسنى، سَيُعامِلُكَ بأسماءِ جَمالِه لا بأسماءِ جَلالِه: الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الغَفَّارِ الغَفُورِ، الجَبَّارِ الكَرِيمِ، الهَادِي العَزِيزِ. فَمَا كانَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ إلَّا لِيَرْحَمَك من عذابِ نَفْسِك ومَقَتِهَا، وَمَا كانَ الغَفَّارُ الغَفُورُ إلَّا لِيَقْبَلَ ذَنبَك ويغفِرَهُ لَك كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ، وَمَا كانَ الجَبَّارُ الكَرِيمُ إلَّا لِيُجبِرَ رُوحَك بِكَرَمِه لا بما تَسْتَحِقُّ، وَمَا كانَ الهَادِي العَزِيزُ إلَّا لِيَهْدِيَكَ إلى سَبِيلِ الرُّشْدِ ويعِزَّكَ بِدِينِه.

مَدَّ يَدَك إلى اللهِ، وسَأَحُطُّ بِيَدِي على كَتِفِكَ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبُكَ وتَأْنَسُ رُوحُكَ، والسَّلامُ عَلَيْكَ وَمِنكَ وَإِلَيكَ، يا صاحِبِي.

✦ ✦ ✦

(14)

"دار فناء"

إنَّ الحياةَ هكذا، كما تراها، دارُ فناءٍ وفُراقٍ.

الكلُّ فيها يمتَطي ظهرَ الرحيلِ، المحظوظُ فقط من مَنَحتهُ الحياةُ لحظةَ وَداعٍ قبل أن يُسافِرَ به مركَبُ الرَّحيلِ بَعيدًا.

يا رفيقي، إنَّ الحياةَ، وَمهما طالت، تبقى قصيرةً جدًا، والرحيلُ فيها قد يباغِتُنا، إنَّه يدنو منا شيئًا فشيئًا. لِنخلَع رِداءَ الهُمومِ فيها، لنتجرَّد مِن ثيابِ العِّراكِ والصِّراعِ من أجلِها، ولنُزيحْ السَّوادَ المصبوبَ بلونِ البغضِ والكراهيةِ والقتالِ على ما هو فاني من شغافِ القلبِ.

وننتهزُ الأوقاتَ في هذا السبيلِ وهذه الرحلةِ، نتقَرَّبُ من بَعضِنا أكثر، ولِتَعلُ ضحكاتُنا فيه سَماءَ ليالي السُمُرِ، ولِتتشابَكْ أيادينا بمن نحبُّ.

فإنَّ الحياةَ قصيرةٌ، والخلودُ فيها مُحالٌ.

يا صاحبي، لتطبطبْ يدُك على كتفي وتمنحني السلامَ، فلا شيءَ أثمنَ من وجودك معي.

دعنا نلتقي كلما فرَّقتنا الحياةُ، مادامت الروحُ تحيا بداخلنا.

فإنَّ الرحيلَ قد دنا... إنَّ الرحيلَ قد دنا...

(15)

"أُمَّةٌ تَحْلَم"

نحنُ أمةٌ تَحلم، لا نصنَعُ شيئًا سِوى الأحلام. نحلَمُ بوحدةٍ تجمَعُنا من مَغرِبِنا إلى مَشرِقِنا، ومن بحرِنا المُتَوسِطِ إلى صحرائِنا.

يا صاحِبي، نحنُ نحلَمُ بوطنٍ لا حدودَ له، ولا حدودَ فيه، قبلتُه بلادُ الحرمين، وقلبُه النابضُ فلسطين. نسافرُ فيه دونَ تأشيرةِ سفرٍ، نتجولُ في دروبه دونَ حواجزَ، نتغربُ فيه دونَ أن نكونَ غرباء.

ياسمينُ الشامِ يُعانِقُ عبقَ زهورِ برتقالِ يافا، وجبالُ أَكاكوسُ تحضنُ نهرَ النيلِ، حدائقُ بابلٍ تغدِقُ السودانَ بورودِ السلام.

لكننا أمةٌ تحلم...

نحنُ، يا صاحبي، أمةٌ تأصلُ الخوفَ في عروقِها، وبدلًا من أن تتوحد، أصابَها التوحدُ.

لم تتحد أمتُنا إلا في كلماتِ الأغاني، وفي قافيةِ الشعر، وفي خطاباتِ التنديدِ والاستنكارِ لشناعةِ وبشاعةِ عدوِّها... أهذا ما يمكنُنا فعله؟

مزَّقتْ خناجرُ التشتُّتِ قلبَها، ساحَ دمُها وتناثرَ على كاملِ جسدِها...

لكننا أمةٌ عربيةٌ فرقها ضعفُها، وهزمها تخاذُلُها.

وباتت تحلمُ بحلمٍ عربي، وحينَ تستيقظُ منه لا تتذكرُ إلا أشلاءَ مغيّبةِ التفاصيل.

يا صاحبي، أأقولُ لها هنيئًا لكِ بسباتٍ عميقٍ وأحلامٍ واهية؟ أم سيأتي يومًا يكونُ فيه كفُّك يصافحُ كفي، وعضدي يشتدُّ بك، ونصنعُ ما كان بالأمسِ أحلامًا؟

✦ ✦ ✦

(16)

"ما الهدف؟"

ودائمًا، يا صاحبي، ما تتفَوَّهُ من بين شَفَاهِكَ بسُؤالٍ حين تكونُ ضائعًا في متاهاتِ الحياةِ، فتقول: "ما الهدفُ من حياتي؟"

سأجيبُكَ عن الهدفِ من الحياةِ: أن تسعى في سبيلِ كلِّ شيءٍ يُحافِظُ على الفِطرةِ السَّليمةِ التي خَلَقَكَ اللهُ عليها، أن تُحافِظَ على الذَّاتِ الإنسانيَّةِ بداخلك.

يا صاحبي، الهدفُ من الحياةِ هو التَّمَسُّكُ، واستمرارُ الحِفاظِ على التَّمَسُّكِ.

ولكن، التَّمَسُّكُ بماذا؟

يا صاحبي، اسعَ لِتَتَمَسَّكَ بتعاليمِ دِينِكَ، فنحنُ في زمنٍ قد تأصَّلَت فيه جُذورُ الانحِلالِ، ومفاهيمُ الجِندرِ، والتَّرويجُ لمُصطلحاتٍ تُنافي الفِطرةَ والعَقيدةَ.

تَمَسَّكْ بأرضِكَ، تَمَسَّكْ بالوطنِ، وإن جُعتَ فيه، وإن تَجَوَّلتَ فيهِ حافيَ القَدمَيْنِ، دافِعْ عنه ولو بالحجارةِ، ولو بالقَلَمِ، ولو بالكَلِماتِ، فإنَّ المَوتَ لأجلِهِ شَهادةٌ، والحياةَ فيه عِزَّةٌ وكَرامةٌ.

تَمَسَّكْ بالحقِّ وكُنْ مُنصِفًا له أينما كان، وحينَ تُصاحِبُه القُوَّةُ أو يُصاحِبُه الضَّعف، كُنْ للحقِّ نَصيرًا. فنحنُ في زمنٍ تَرتَفِعُ فيه راياتُ الزَّيفِ والاغتِصابِ، كُنْ مع الحقِّ وإنِ اجتَمَعَت جُيوشُ الأرضِ ضِدَّهُ، فلا بُدَّ أن تُشرِقَ على الحقِّ شَمسُ العَدالةِ فيَظهَرَ ويَنتَصِرَ، ولا بُدَّ للباطلِ أن يَزهَقَ ويُندَحِرَ.

عِشْ حُرًّا وتَمَسَّكْ بالحُرِّيَّةِ بِموجِبِ الحَقِّ والقوانينِ التَّشريعيَّةِ لها، ولا تجعَلْ في حُرِّيَّتِكَ استِعبادًا لغيرِكَ، ولا تَعتَدِ على حُقوقِهِ، فلم تَكُنِ الحُرِّيَّةُ يَومًا بفِعلِ ما شِئتَ من سَطوٍ وتَخريبٍ وتَدميرٍ واستِعبادٍ دونَ عِقاب.

يا صاحبي، الهدفُ من الحياةِ أن تَتَمَسَّكَ بالإنسانِ الذي بداخلك، وتَسقيَ بُذورَ الإحسانِ في جَوفِكَ في عالمٍ مَليءٍ بِنَذالةِ الوُحوشِ الكاسِرةِ التي تَتَفَنَّنُ في أساليبِ القَسوةِ.

والسَّلامُ عليك.

✦ ✦ ✦

(17)

"فيها الخير"

يا صاحبي، وإنَّ الحياةَ مهما اسوَدَّتْ صُحُفُها، واشتدَّتِ المِحَنُ فيها، وازدادت شُرورُها، وكَثُرَ الفسادُ فيها، فهي لا تَخلو من أفئدةٍ يَسكُنُها الخيرُ، عامرةً بمَعاني النُّبلِ، وأرواحٍ تَتحكَّمُ في غَرائزِها وِفقًا لما هو مُباحٌ ومُحَرَّمٌ.

فلا تيأسْ في هذه الدُّنيا، ولكَ ربٌّ رحيمٌ يُهيِّئُ لكَ من الأقدارِ أجمَلَها. فإنَّ صاحبَ الخيرِ لا يَكتُبُ إلَّا الخيرَ، ولو بدا لكَ في ذلكَ شرٌّ.

اصبِرْ وجاهِدْ نفسَكَ في تَهذيبِها، وكُنْ راضيًا بمَكاتيبِ اللهِ إليكَ، فَلَعَلَّ الخيرَ يَكمُنُ في الشَّرِّ.

(18)

"امتنان"

يا صاحبي، إنّي أحملُ في شِغافِ قلبي من الامتِنانِ مِلءَ ما بين السَّماواتِ والأرضِ ويَفيضُ امتِنانٌ للهِ وأقدارِهِ الّتي جَعَلَتْكَ فيها من بينِ هَداياهُ لِفُؤادي لِيَستَكينَ بكَ، ويَأنَسَ بِوُجودِكَ.

من لَحظةِ اللِّقاءِ الأُولى كانت نَواياكَ الحَسَنةُ تَلوحُ في الأُفُقِ بَيضاءَ كَرايةِ السَّلامِ.

وحينَ اقتَرَبتُ مِنكَ أكثَرَ، تَيَقَّنتُ أنّ اللهَ يُحِبُّني حتّى كانت هَديتُه لي أنتَ، هَديَةٌ بِثَمنٍ باهِظٍ.

يا صاحبي وخَليلَ الرّوحِ، أعلمُ أنّ سُبُلَ الحياةِ باتَتْ أكثَرَ صُعوبةً، وأكثَرَ التِواءً، وَيَصعُبُ على صاحِبِ الحَقِّ وصاحِبِ المَبدأِ السَّيرُ فيها، والمُستَقيمُ مِثلَكَ لا يَسيرُ إلّا في طُرُقٍ مُستَقيمةٍ.

لكنّني أعلمُ أنّ اللهَ حينَ نَفَخَ فيكَ مِن رُوحِهِ مَنَحَكَ الإرادَةَ المَتينَةَ الّتي تُمَكِّنُكَ مِن أنْ تَكونَ النَّزيهَ في دُروبٍ تَفيضُ بِدَنَسِ الفُجورِ، وَأَنبَتَ في روحِكَ الخِصبَةِ بُذورَ الجَمالِ الّتي تَتَسِمُ بالطِّيبَةِ والصَّفاءِ.

يا صاحبي، اِهدَأْ واستَكِنَّ، ولا تُرهِقْ فُؤادَكَ، فَلَن تَرى في الحياةِ إلّا ما كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَاعلَمْ وَإِنْ خَذَلَتكَ نَفسُكَ، فَإِنَّ اللهَ لا يَخذُلُكَ.

يا صاحبي، إنْ لم تَلتَقِ دُروبُنا يومًا، تَأَكَّدْ أنّ قُلوبَنا تَجلِسُ على طاوِلَةِ اللِّقاءِ، وإنَّ أرواحَنا تَجتَمِعُ عندَ اللهِ بِدُعاءٍ.

وأخيرًا، في هذه الرِّسالَةِ وليست هذهِ آخِرَ رَسائِلِي، سَأُخبِرُكَ بأنّني هُنا أَنتَظِرُ حُروفَكَ والكَلِماتِ، والحَنينُ إليكَ لا يَعفو.

أنتَظِرُ أنْ أراكَ بينَ غَفوَةِ الأَمسِ وَيَقظَةِ اليومِ.

استَودَعتُكَ اللهَ وَقَدْ كَتَبَ في أَقدارِكَ كُلَّ ما هو جَميلٌ يَليقُ بِجَمالِ نَبضِكَ، وَكُلَّ ما هو لَيِّنٌ يَليقُ بِلِينِ روحِكَ وَدِفئِها...

ولَكَ السَّلامُ...

✦ ✦ ✦

(19)

"ثابِر"

يا صاحِبي، قاوم،

يا صاحِبي، ثابِر،

ليسَ لأجلِ الدُّنيا وَمَتاعِها، بَل لأجلِ أن تَحيا فيها كَريمًا، لِتَكونَ فيها صاحِبَ شَرَفٍ، ولَيسَ الشَّرَفُ الرَّفيعُ بِالنَّسَبِ العَريقِ، فَلَمْ تَكُن لَنا حُرِّيَّةُ الاختيارِ في النَّسَبِ، ولكِن لَنا حُرِّيَّةٌ في اختيارِ أن نَعيشَ فيها بِعِزٍّ وَكِبرياءٍ.

يا رَفيقي، كُلُّنا لَنا نِهايةٌ واحِدَةٌ (الموتُ)، وَحينَ يَأتي أَجَلُنا، لَنْ نَأخُذَ مِن أَمتِعَتِنا شَيئًا.

حَتَّى أَجسادُنا الَّتي نَدخُلُ بِها تَحتَ التُّرابِ، سَيَشبَعُ مِن لَحمِها الدُّودُ.

اِختَر نِهايَتَكَ وَأَنتَ تَسعَى لِمَعرِفَةِ الحَقيقَةِ، وَتُدافِعُ عَنِ الحَقِّ.

اِختَر نِهايَتَكَ وَأَنتَ تُناضِلُ لِأَجلِ مَحوِ الجَهلِ.

اِختَر نِهايَتَكَ وَأَنتَ تُخلِصُ في عِبادَتِكَ وَعَمَلِكَ.

اِختَر نِهايَتَكَ وَأَنتَ تُدافِعُ عَنِ الوَطَنِ وَتُحارِبُ لِأَجلِهِ.

اِختَر نِهايَتَكَ في كَنَفِ الإسلامِ.

وَلَكَ السَّلامُ.

(20)

"اترُكها لله"

يا صاحِبي،

لا يَعيبُ النَّفسَ إلَّا كَثرةُ الخَطايا، ولا يُقلِقُ العَقلَ إلَّا فَرطُ التَّفكيرِ، ولا يُوهِنُ الجَسدَ إلَّا سَهَرُ الجُفونِ، ولا يُرهِقُ الفُؤادَ إلَّا تَخزينُ الهُمومِ، ولا يَعيبُ الرُّوحَ إلَّا خُبثُ نَواياها.

اِعلَم، يا صاحِبي، أنَّهُ لَن تَرحَلَ مِن هذِهِ الدُّنيا إلَّا وَقَدِ استَكمَلَ اللهُ لَكَ رِزقَكَ فيها، فلا تُبالي بِشيءٍ، ولا تَغُص في هُمومِ الحياةِ كَثيرًا.

فإنَّ اللهَ يُدَبِّرُ لَكَ في السَّماءِ ما يَليقُ بِكَ، وفَوقَ ما تَستَحِقُّه.

فامضِ في دُروبِها ساعيًا مُبتَغيًا وَجهَ اللهِ فيها، وازرَعِ الحُبَّ في قُلوبِ مَن حَولَكَ، ومُدَّ يَدَ السَّلامِ لِكُلِّ مُصافِحٍ.

يا صاحِبي، كُن رَحيمًا، فَلَن تَنالَ رَحمَةَ اللهِ إلَّا حينَ تَرحَمَ مَنْ في الأرضِ وَما عَلَيها.

وَكُنْ هَيِّنًا لَيِّنًا، ففي الحَياةِ مِنَ الأهوالِ والقَسوَةِ ما يَدفَعُ أَحَدَهُم لأن يُغادِرَها مُنتَحِرًا...

✦ ✦ ✦

(21)

"بالوُدِّ"

يا صاحِبي، إنَّ شُعورَ الوُدِّ مَسكَنُهُ الصُّدورُ، تَخفِقُ بِهِ الأفئدةُ، وَيُودَعُ في القَصائِدِ، يُرَصِّعُ السُّلوكَ بالجَمالِ، يُنيرُ أعماقَ الرُّوحِ بِخُيوطِ شَمسٍ مَغزولةٍ بِالحُبِّ، وَإنَّهُ لَيَربِطُ القُلوبَ بِالدِّفءِ، وَيُحيطُها بِالأمانِ، وَيَزرَعُ فيها السَّلامَ.

يا صاحِبي، فَقَبلَ كُلِّ شَيءٍ لِنَتَعاتَب وُدًّا عِندَ حُدوثِ سُوءِ الفَهمِ بَينَنا، لَعَلَّنا نَجِدُ سَبيلًا لِصُلحٍ. شارِكني مَخاوِفَكَ مِنّي، لَعَلّي أُبَدِّدُها قَبلَ أَن تَبني عَلَيها سَدًّا مِنَ الأوهامِ، يَنقَطِعُ بِهِ حَبلُ وِصالٍ كانَ مَتينًا.

أَعطِني فُرصَةً واحِدَةً عَلى الأقَلِّ لِتَبريرِ مَوقِفٍ أَزعَجَكَ مِنّي قَبلَ أَنْ تَلجَأَ إلى النُّفورِ، وَمِنْ ثُمَّ اللَّامُبالاةِ وَالتَّجاهُلِ، حَتّى نُصبِحَ كَالغُرَباءِ بَعدَ أَن كُنّا عَلى وَفاقٍ.

اِلتَمِس لي عُذرًا واحِدًا مِن سَبعينَ عُذرًا حينَ أَغيبُ عَنكَ، فَلا تَقُل هَجَرَنا دونَ سَببٍ، وَتَحمِلَ كُرهًا وَغَيظًا في داخِلِكَ نَحوي.

عَزيزِي الإنسانُ، لا تَستَهِن بِالعَلاقاتِ فَتَهدِمَ حَبلَ وِصالِها عَلى أَهونِ الأَسبَابِ، إِنْ كانَ هُناكَ مَجالٌ لِلصُّلْحِ وَالوَصلِ فَالجَأْ إِلى هَذا السَّبيلِ قَبلَ كُلِّ شَيءٍ، فَالصُّلْحُ خَيرٌ.

فَنَحنُ البَشرُ سَعادَتُنا تَكتَمِلُ حينَ نَكونُ مَعًا في دُروبِ الحَياةِ، وَخَيرُ الوَصلِ تَشتَدُّ مَتانَتُهُ بِالوُدِّ.

✦ ✦ ✦

(22)

"مُشاركة"

يا وَليفَ الرُّوحِ وَونيسَها، لا يُمكِنُ لِلإنسانِ المُسَيرِ في هَذِهِ الحَياةِ المُثقَلَةِ بِالأعباءِ وَالأحمالِ الشَّاقَّةِ وَحدَهُ، لا يُمكِنُهُ مُواجَهَةُ الصِّراعِ بَينَ المَسؤُولِيَّاتِ الَّتي تَقَعُ عَلى عاتِقِهِ دُونَما شَريكٍ يُشارِكُهُ هَذِهِ الحَياةَ تَحتَ أَيِّ مُسَمًّى.

فَإِن شارَكَهُ الحُزنُ خَفَّت آلامُهُ، وَإِن شارَكَهُ السَّعادَةُ تَضاعَفَت نَشوَتُها، وَإِن شارَكَهُ السَّكَنُ اعتادَت رُوحُهُ عَلى الأُنسِ، وَإِن شارَكَهُ الأَكلَ اعتادَت رُوحُهُ عَلى العَطاءِ، وَإِنْ شارَكَهُ أَسرارَهُ أَلِفَت رُوحُهُ الأَمانَ وَالثِّقَةَ.

لا بُدَّ لَنا مِن مُشارَكَةِ تَفاصيلِ الحَياةِ مَعًا، وَإِلَّا سَنَكونُ فيها مُجَرَّدَ أَمواتٍ تَتَنَفَّسُ.

الإنسانُ...

يا صاحِبي، خُلِقنا نَحنُ البَشَرَ لِتَأدِيَةِ وَظيفَتَينِ في رِحلَةِ الحَياةِ، أَلَا وَهُما:

عِبادَةُ الخالِقِ الَّذي أَكرَمَنا بِعَطاياهِ وَمَنَحَنا اسمَ الإنسانِ لِيُمَيِّزَنا عَن باقي مَخلُوقاتِهِ بِمَشاعِرِ الإنسانِيَّةِ، وَنَفَخَ فينا مِن رُوحِهِ لِيَزرَعَ صِفاتِهِ العَظيمَةَ في أَرواحِنا، وَخَلَقَ لَنا العَقلَ لِيَتَدَبَّرَ كُلَّ شَيءٍ، وَكُلَّ ما نَحنُ فيهِ مِن خَيرٍ وَشَرٍّ، حَقٍّ وَباطِلٍ، لِنُمَيِّزَ بَينَهُما وَنَسلُكَ السَّبيلَ القَويمَ.

وَخُلِقنا لِتَلبِيَةِ احتِياجِ بَعضِنا لِبَعضٍ وَلِنُكمِلَ بَعضَنا في مَسيرَةِ حَياةٍ نَراها طَويلَةً وَشاقَّةً.

يا وَنيسي، لا يُمكِنُ لِنَفسٍ أَن تَعيشَ وَحدَها مُنفَصِلَةً عَنِ الأُخرى.

فَقَد رَبَطَنا اللهُ بِرِباطِ الحَياةِ، رِباطِ المَوَدَّةِ وَالرَّحمَةِ وَالحُبِّ.

فَلَو عَقَدْنا هَذا الرِّباطَ بِعُقدَةٍ قَوِيَّةٍ سَليمَةٍ صَحيحَةٍ لا تَتَأَثَّرُ بِعَقَباتِ الطَّريقِ الَّذي نَسلُكُهُ، وآمَنَّا إيمانًا كامِلًا بِفِطرَةِ الاحتِياجِ لِبَعضِنا الَّتي فَطَرَنا اللهُ عَلَيها، لَكُنَّا عِشنا في الجَنَّةِ مَرَّتَينِ: مَرَّةً في الدُّنيا وَمَرَّةً في الآخِرَةِ.

إنَّ أَهَمَّ ما في هَذِهِ الحَياةِ وَأَساسَ السَّعادَةِ فيها هُوَ عِبادَتُكَ لِخالِقِكَ حَقَّ العِبادَةِ، وَأَنْ تَكسِبَ الإنسانَ الَّذي بِداخِلِكَ لِتَكسِبَ الإنسانَ الَّذي بِجانِبِكَ.

أَمَّا المالُ وَالجَاهُ وَالسُّلطَةُ وَالعِلْمُ وَالحَسَبُ وَالنَّسَبُ فَهِيَ زَخارِفُ وَزِينَةٌ لِسَعادَتِنا.

فَكُن مُتَوازِنًا لِتَكسِبَ السَّعادَةَ وَزِينَتَها.

وَدُمتَ بِخَيرٍ وَأَمانٍ.

✦ ✦ ✦

(23)

"الفصولُ الأربعةُ"

يا صاحِبي، إنَّ الفصولَ الأربعةَ تُجسِّدُ واقعَنا والدّراما التي نعيشُها، فلكلِّ فصلٍ حكايةٌ يرويها لنا، وهي ترجمةٌ لداخلِنا ومشاعرِنا.

الشِّتاءُ:

يكونُ باردًا على قَدْرِ حاجتِنا للدِّفءِ، نحنُ بحاجةٍ إلى تجديدِ الدِّفءِ الذي يسكنُ أرواحَنا على الدَّوامِ كلّما شعرْنا بالبردِ، ولا نشعرُ بالدِّفءِ إلّا بعدَ شتاءٍ قارِصِ البرودةِ يعصِفُ بأرواحِنا، فيظهرُ دِفءُ مَنْ حولَنا ويَسري إلى دواخِلِنا بتواصُلِنا معًا، ودعْمِنا لِمَنْ نُحِبُّ، ودعْمِ مَنْ نُحِبُّ لنا.

نحنُ بحاجةٍ إلى دفءِ العائلةِ، الأصدقاءِ، ومَنْ نُحِبُّ على الدَّوامِ، حتّى لا نفقدَ معنًى مِنْ معاني الحياةِ.

الصَّيْفُ:

يكونُ حارًّا ملتهبًا، فيجعلُنا نبحثُ عن سُبُلِ المَرَحِ، فقد نُرَتِّبُ لأُمسيةٍ على البحرِ، أو سَهْرةٍ طويلةٍ بين أحضانِ الليلِ نُسامِرُ فيها بعضَنا تحتَ ضوءِ القمرِ، فلا فاصِلَ بينَ السَّماءِ والأرضِ إلّا نحنُ، أو تجمُّعٍ ودِّيٍّ في مساءٍ يحملُ في طيّاتِهِ نسيماتٍ هادئةً تَهْمِسُ للرّوحِ بأُنْسِها وسَكِينَتِها.

هذا يُقَوِّي علاقاتِنا، ويجعلُنا نَنْقُشُ ذكرياتٍ تُخَلِّدُنا في صفحاتِ الجمالِ.

الرَّبيعُ:

أزهارُه وألوانُه تزدادُ بها الطَّبيعةُ جمالًا من حولِنا، فينعكِسُ جمالُها على قلوبِنا، فلا نُبصِرُ إلّا كلَّ ما هو جميلٌ يُسِرُّ الرُّوحَ ويُداعِبُ مُهْجَتَها.

الخريفُ:

أمّا عن الخريفِ، فيبدأُ حكايتَهُ لنا عن ألمِ الفُراقِ الذي نُودِّعُ فيهِ مَنْ نُحِبُّ حينَ يرحلونَ مع تساقُطِ أوراقِ الخريفِ، ويُحَدِّثُنا عن أرواحٍ خارتْ قواها وانهارتْ.

ثمَّ يُنهي حكايتَهُ مُجَدَّدًا بأنَّ لكلِّ فِراقٍ لقاءً، ولكلِّ ضَعْفٍ قوَّةً مُضاعَفَةً حينَ يُخَلِّفُ كلُّ غُصْنٍ ورقةً خضراءَ مقابلَ كلِّ ورقةٍ صفراءَ باهِتةٍ قد سقطتْ عند ضَعْفِنا.

فيكونُ مُرَمِّمًا لِكُلِّ انهيارٍ...

✦ ✦ ✦

(24)

"مسرحية"

إنَّ الحياةَ في الغالبِ مسرحيَّةٌ نؤدِّيها دونَ مسرح، نؤدِّي فيها أدوارًا لا تنطبقُ مع واقعِنا ومع داخلِنا، فقد نكونُ تعساءَ وفي قمَّةِ الألمِ وذروتِه، ولكنَّنا نتقنُ دورَ الإنسانِ المسرورِ ذو البهجةِ والفرحِ، ونرسمُ علاماتِ الضَّحكِ على وجوهِنا. وقد يكونُ العكسُ صحيحًا أيضًا، فنسدلُ ثوبَ الكآبةِ والحزنِ على ظاهرِنا، ونجبرُ الدُّموعَ على النُّزولِ من مدامعِنا، ونحنُ باطنُنا يعمُّ بالسَّعادةِ، وتعلو فيه أهازيجُ الطَّربِ.

إنَّ للحياةِ سيناريوهاتٍ تجعلنا نتوهُ في تفاصيلِها، فقد نعيشُ دورًا هو بالأساسِ لنا ويعبِّرُ عن ماهِيَّتِنا، أو نقتبسُ دورًا لا يليقُ بنا ولا يليقُ بكيانِنا، ولكنَّنا نجبرُ على إتقانِه لحكمةٍ ما أو موقفٍ ما فُرِضَ علينا.

لذا يا صاحِبي، لتسكنِ الرَّحمةُ قلبَك، وليكسُ اللِّينُ طِباعَك، ولتكنْ معاملتُك بالحُسنى، فربما إنسانٌ يؤدِّي دورًا لا يتناسبُ مع روحِهِ ونزيفها.

وكن حذرًا، فربما من يُمثِّلُ دور البراءةِ والحملِ الوديعِ يكونُ في الأصل ثعلبًا ماكرًا...

وفي النِّهايةِ يا عزيزي، لك بالظَّاهر، أمَّا البواطنُ فعِلمُها عندَ الخالقِ. فاستعِذْ بالله من شرِّ البواطنِ والظَّواهرِ.

✦ ✦ ✦

(25)

"باتَ لنا فيها القُشور"

المُعضِلةُ العُظمى والكُبرى تَكمُنُ في اتِّزانِ العَقلِ، والتَّفكيرِ المُفرِطِ، والشُّعورِ العَميقِ، في زمنٍ كلُّ ما فيهِ مِن حَولِكَ يطفو على سَطحِ مياهٍ راكِدةٍ، بِرَكٍ تُحرِّكُها أبسطُ نَسمةِ هواءٍ.

في حياةٍ كأنَّما ميزانُها أصابَهُ خَللٌ ما، فالميزانُ المَنطِقيُّ يُقِرُّ ويَنصُّ على أنَّهُ كُلَّما ثَقُلَ وزنُ الشَّيءِ زادَ معيارُهُ وثمنُهُ، وكُلَّما خَفَّ وزنُهُ باتَ لا يُساوي إلَّا القَليلَ.

ولكن، باتَ لميزانِ الحياةِ في عصرِنا هذا إقرارٌ ونَصٌّ مُختَلِفٌ تَمامًا، حين وُضِعَ أصحابُ العُقولِ أخفُّ مِن الرِّيشةِ، والقلوبُ خاليَةُ الوِفاضِ مِن الشُّعورِ بكفَّةٍ، مُقابِلَ كفَّةٍ أخرى تَحمِلُ أصحابَ العُقولِ الثَّقيلةِ بالنُّضجِ والاتِّزانِ.

فكانتِ النَّتيجةُ أنْ رُفِعَتْ كفَّةُ أصحابِ العُقولِ الخَفيفةِ عاليًا، ارتفاعًا وشَأنًا ورُتبةً، وكفَّةُ العُقولِ المُمتلِئةِ أُنزِلَتْ أسفَلَ الدَّرَكِ، لِتُطحَنَ بينَ فَكَّيِّ الحياةِ وتُصبِحَ اللاشيءَ، ولا تُساوي شَيئًا.

يا صاحِبي،

هذا الزَّمنُ غدَّارٌ، هذا الزَّمنُ خائِنٌ، هذا الزَّمنُ لا يُؤتَمَنُ، قد يُقلِبُ حَقيقةً ومَنطِقيَّةَ المَوازينِ في أيِّ لحظةٍ، يَستُرُ الكَذِبَ بِرِداءِ الحَقيقةِ، ويَجعَلُ الحَقيقةَ عارِيَةً بمَظهَرِ الكَذِبِ وكأنَّها عاهِرةٌ.

ولكن كُنْ حَذِرًا، وتَذَكَّرْ أنَّ هذا الزَّمنَ راحِلٌ، فإيَّاكَ أنْ يَخِفَّ عَقلُكَ ويَخلُو قلبُكَ مِن الشُّعورِ، فإنَّ الزَّمنَ بطَبيعَةِ حالِهِ يَدورُ.

فلا تَمشِ مع هَوى الزَّمنِ وسَخافاتِه.

(26)

"على هذه الأرضِ أوفياء"

يُخبرُ صديقَه أنَّ ثمَّةَ سوادًا يراهُ في كلِّ مكانٍ، في دواخِلِ روحِه وفي المُحيطِ، وأنَّه لا يُريدُ سوى الهروبِ من كلِّ شيءٍ، وأنَّه عاجِزٌ عن كلِّ شيءٍ، وأنَّه لا يُمكنُه تجاوزُ ما حدثَ، ولا يُمكنُه العودةُ إلى الوراءِ، إلى ما قبلَ الحدثِ.

فلا يردُّ عليهِ صاحبُهُ بكلمةٍ، ولم ينبِسْ ببنتِ شفةٍ، إنَّما احتضنَهُ وأكملَ الإصغاءَ إليه، إلى كلماتِه المُشتَّتةِ البائسةِ، وإلى نبرَةِ صوتِه المُبعثَرةِ بالشهيقِ العاصِفِ والمَخنُوقَةِ بالعَبَراتِ، ثمَّ يجهَشُ بالبُكاءِ الهِستِيريِّ المُتَواصِلِ.

ويَلتَزِمُ صديقُه الصمتَ، ويستمِرُّ في احتضانِه بقوَّةٍ كطفلٍ صغيرٍ، وينتظرُ حتى يهدأ... فلا يهدأ.

فيمسِكُ بيدِهِ، ويبدأُ حديثَه قائلًا:

يا صاحِ، لا يُمكنُني أن أمنَعَكَ مِنَ البُكاءِ، فهو الوسيلةُ الوحيدةُ المُتاحةُ لراحتِكَ، ولكن يُمكنُني أن أبكيَ معكَ.

لا يُمكنُني أن أُعيدَكَ إلى ما قبلَ الحادِثَةِ، ولكنْ تَمسَّكْ بيدِي جيِّدًا، فأنا يُمكنُني أن أمضيَ بِكَ قُدُمًا.

يُمكِنُنا أن نهربَ معًا مِنَ السَّوادِ الذي تراه، يُمكنُنا أن نتجاوزَ كُلَّ شيءٍ ونحنُ معًا.

إنْ كنتَ في الطَّريقِ الصَّحيحِ، فأنا معكَ، وإن كُنتَ في الطَّريقِ الخطأ، فأنا لكَ، حتَّى يعودَ إليكَ صوابُكَ.

لَكَ منِّي الأُذُنُ الصَّاغِيَةُ، لَكَ منِّي الحضنُ الدَّافئُ، لَكَ منِّي الملجأُ الآمِنُ، لَكَ منِّي حِفظُ السِّرِّ، لَكَ منِّي وقودُ الأملِ، وأغصانُ السَّلامِ.

لَكَ منِّي الحُضورُ إذا ندمتَ،

لَكَ منِّي أن أكونَ الهيِّنَ اللَّيِّنَ.

هاتِ يدَكَ وقُمْ معي، هيَّا، انهَض، إنَّ ما حدثَ قد حدثَ، وإنَّ السَّبيلَ أمامَنا طويلٌ، وإنَّ الخيرَ فيهِ كثيرٌ.

لا تكُنِ الضَّعيفَ، فإنّي أقوى بِكَ، لا تكُنِ اليائِسَ، فإنّي أستَمِدُّ أملي مِنْكَ، لا تتشتَّتْ، فإنّي دونَكَ ضائِعٌ.

هاتِ يدَكَ،

فلا مَفَرَّ مِنَ القَدَرِ،

ولا دَواءَ إلَّا الصَّبْرُ.

(27)

"قهوةٌ على المفرق"

يا وَنِيسي، لكلِّ مَسارٍ مُفتَرَق، ولكلِّ مُفتَرَقٍ حكاية.

أمَّا عنِ الحكايةِ الأُولى... فكما تغنَّت فيروز، صاحبةُ الصوتِ الصَّباحيِّ الشَّذيِّ:

"في قهوةٍ عَ المفرَق، في مَوقدةٍ وفي نار... نبقى أنا وحبيبي، نِفرشها بالأسرار... ونكمِّل سَوا المِشوار"...

أي يا صاحبي، الحكايةُ لا تنتهي عند أُولى العقبات، لا يَجعلونَ المُفتَرَقَ للفِراق، بل يَبدَؤونَ الحكايةَ عندَ كُلِّ مُفتَرَقٍ.

أمَّا الحكايةُ الثَّانية... فقد وصلنا إلى المُفتَرَق، وصلنا إلى آخِرِ المِشوار.

ومن ثمَّ، لكلٍّ منَّا وُجهةٌ تختلفُ عنِ الأخرى، هذا يَتَّجِهُ يَمينًا، وذاكَ يَتَّجِهُ يسارًا، فيكونُ المُفتَرَقُ حينَها آخِرَ مكانٍ للقِاءِ بينَهُما.

إنَّ المُفتَرَقَ هوَ نفسُهُ، يَعبُرُ منهُ الجميعُ، ولكنْ فيهِ الحكايةُ لكلٍّ مِنَّا تَختَلِفُ.

وليسَ للمُفتَرَقِ ذَنبٌ في تفاصيلِ حِكايتِنا، فهوَ فقط إطارٌ نُبَرِّزُ فيهِ نَحنُ أبطالُ الرِّوايةِ... روايتُنا.

(28)

"مفاتيحُ القُلوب"

قد تَنبَهِرُ الألبابُ بالمظاهرِ الَّتي تراها العينُ، أو بالحكايا الَّتي تَسمعُها الأُذُن، ولكنَّ انبهارَ العقولِ زائلٌ، وغالبًا ما يؤولُ إلى الاندثار وللانبهارِ في القلوبِ حكايةٌ أُخرى لا تَنتهي ولا تزول، لأنَّ القلوبَ لا تَنبَهِرُ ولا تُسحَرُ إلَّا بكُلِّ ما هوَ عميقٌ ولطيف، إلَّا بكُلِّ مَن تأصَّلَ بوجدانهِ الخيرُ، وبَوتينِهِ الحُبُّ النَّقيُّ مِن دَناسةِ المصلحةِ والمُقايضة.

لا تُؤسَرُ القلوبُ إلَّا بالحبِّ والأمانِ والأُنس.

وعادةً، لا يَخطُرُ على بالي في لَحظاتِ صَفائي وانسجامي إلَّا مَن سَكنوا قَلبي، ولا يَسكُنُ قَلبي إلَّا أولئكَ الذين يَملأُ داخِلَهُم النَّقاءُ، فيَعكِسُ نورًا على وجوهِهِم، وأولئكَ الذين استوطَنَتِ الرَّحمةُ والمحبَّةُ قلوبَهُم، وسَكَنَتِ البَراءةُ عُيونَهُم، وكَسَتِ العَفويَّةُ تَصرُّفاتِهِم.

أولئكَ الذين تَجَرَّدوا مِنَ الزَّيفِ والخِداع.

إنَّ وُجودَ مثلِ هذا النَّقاءِ على بُقعةٍ مِن بِقاعِ الأرضِ، قَريبةً مِنِّي كانتْ أم بَعيدةً، يُشعِرُني بأنَّ في هذا العالَمِ ما يَستحِقُّ أن نَستمِرَّ للعيشِ فيه،

وبأنَّ المحبَّةَ لا تزالُ شِعارَنا في هذا العالَمِ المليءِ بالخَبايا والكَوارِث.

سأُخبِرُكَ، يا صاحبي، بمَفاتيحِ القُلوب:

أن يَسكُنَ اللِّينُ قَلبَكَ، وتَرتَدي مُعامَلاتُكَ ثَوبَ الأخلاقِ الحَسَنَةِ، وتَعتادَ شِفاهُكَ البَسمَة.

وأنْ يَتْقِنَ لِسانُكَ الصَّمتَ، فلا يَتَحدَّثَ إلَّا بالحُسنى والحَقِّ، ولا يَنطِقَ عنِ الهوى، ولا يَكُنْ ثَرثارًا، ولا يَكونَ غِذاؤُهُ الفِتنَةُ والنَّميمةُ والغِيبَة، فإنَّها مِن المُنَفِّرات، فإنَّ لِسانَكَ حِصانُكَ، إنْ صُنتَهُ صانَكَ.

وأنْ تَكونَ المُبادِرَ دائمًا بالحُسنى والمَعروفِ والسَّلام.

وأنْ تُعرِضَ عنِ الجاهِلِ أينَما كان.

وأنْ تَكونَ حَليمًا عندَ الغَضَب.

عليكَ باللِّين، فإنْ وَقَعَ في قَلبِكَ، واعتادَهُ لِسانُكَ، وكَسَى طِباعَكَ، فأنتَ مَلَكتَ القُلوبَ وحُبَّها.

(29)

"طَوقُ السَّلام"

بالسَّلامِ عليكَ أبدأ...

السَّلامُ عليكَ، والرَّحمةُ لقلبِكَ، والبركةُ لعُمرِكَ.

قد أخبرتُكَ ذاتَ يومٍ أنَّ نهايةَ الظَّلامِ نُورٌ، وأنَّ نهايةَ الحربِ سَلامٌ...

وأنَّ اللهَ في عُلاهُ قادرٌ على كُلِّ شيءٍ، أمرُهُ بينَ الكافِ والنُّون، صاحِبُ فِعلٍ لا قَول، وإنَّما نحنُ البَشرُ أصحابُ قَولٍ لا فِعل، نفعَلُ ما يَشاءُ اللهُ لنا أنْ نفعَل.

قد مرَّتْ بِكَ أيَّامٌ رَتيبةٌ وطويلةٌ،

ثَقُلَ على كاهِلِكَ حَملُها، وقَبضَتِ الهُمومُ على قلبِكَ، ضاقَ جَوفُكَ بِما رَحُبَ، سالَ دَمعُكَ دونَ تَوقُّفٍ حتَّى حَفَرَ على خدَّيْكَ الأُخاديد، وسَكَنَ مُضجعَكَ القَلَقُ والأَرَقُ، وروحَكَ الخَوفُ واليَأسُ...

لكنَّها الآن، يا صاحبي، مضَت، هانَتْ قسوتُها، واندمَلَتْ جِراحُها.

أخبرتُكَ أنَّه مَن يَستعِنْ باللهِ وعليهِ يَتوكَّل، ولأقدارِهِ يَلبَسْ رِداءَ الصَّبر، ولِرِزقِهِ يَسعَ، حتَّى في أقسَى الأحوالِ والظُّروف، فإنَّ اللهَ لَن يُخذِلَهُ وإنْ خَذَلَهُ الرَّفيق، ولَن يَتَخلَّ عنهُ وإنْ هَجَرهُ الأَحبَّةُ.

يا صاحبي...

في يومٍ أَحسَبُ أنَّكَ فيهِ سَعيدٌ، وأخبارُ النَّصرِ تَرفَعُ راياتِ الفَرحِ عاليًا في قلبِكَ،

والسَّلامُ يَسري في أَوصالِكَ إلى الرُّوحِ...

أُبعِثُ إليكَ بِكَلِماتٍ عاجِزةٍ لا تَستَطيعُ التَّعبيرَ عن مدى فَرَحي لِفَرَحِكَ، وأُهَنِّئُكَ على يومٍ انتَظَرتَهُ طويلًا، يومٍ تَسطَعُ فيهِ أَشِعَّةُ النُّورِ مِنَ السَّماءِ لِتُعانِقَ أرضًا شَمَّاءَ أَبِيَّةً...

✦ ✦ ✦

(30)

"صفحة بيضاء"

كثيرةٌ هي صفحاتنا الّتي نَقَشْنا على سُطورها أُمنياتٍ وأحلام، عثراتٍ وطموحات، خيباتٍ وآمال، ذكرياتٍ تَحْمِلُ أدَقَّ التفاصيل.

نَقَشْنا عليها زَلّاتٍ لم نكن نَقْصِدُها، وأخطاءً لا تُغْتَفَرُ حتّى وإن مَزَّقْنا الصَّفَحات، سيَبْقى أَثَرُها في الأعماق نَتَذَكَّرُهُ مع كُلِّ نَفَسٍ، ونَتَخَنَّقُ به معَ الكَلِمَاتِ.

نَقَشْنا بأيدينا على صفحاتنا الهواجسَ والمخاوف، التردُّدَ والتَّشَتُّتَ، الحيرةَ والتَّحَيُّرَ، النرجسيَّةَ والمازوخيَّة.

كما نَقَشَ عليها القَدَرُ ماهيَّتَنا في كُلِّ شَيْءٍ.

نَقَشَ أَرْزَاقَنا وأَيْنَ هي؟ وكَيْفِيَّةَ السَّعْيِ إِلَيْهَا؟

ألقابُنا الَّتِي نَكْتُبُها وراءَ أسمائنا عُنْوَةً شِئْنا أم أَبَيْنَا هي قَدَرٌ مُحْتَمٌ لا جِدَالَ فيهِ ولا هُرُوبَ منهُ، فليس لنا فيها الحقُّ بالفَخْرِ كما ليس لنا الحقُّ في أن نَخْجَلَ منها، فهي سَطَّرَها لنا القَدَرُ.

نَقَشَ القَدَرُ على صفحاتنا أيضًا اللِّقاءَ والفِراقَ، الخَطَأَ والصَّوَابَ، الوَاقِعَ والخَيَالَ، الخَيْرَ والشَّرَّ، المُقيمَ وعَابِرَ السَّبِيلِ، الأصدقاءَ الأَخْيَارَ والأصدقاءَ الأعدَاءَ، والأعدَاءَ الأَخْيَارَ والأعدَاءَ الأَنْجَاسَ.

قد زَيَّنَّا صفحاتٍ من حياتنا بمكارمِ الأخلاقِ والتَّوبةِ والصَّلاحِ وإنسانيةِ الإنسان، وصفحاتٍ أخرى تَلَوَّثَتْ بعَنجَهِيَّتِنا وتَمَرُّدِنا، خُبْثِنا وتَقْصِيرِنا، تَرَفُّعِنا المَغْرُورِ، تَجَرُّدِنا من فِطْرَتِنا السَّليمةِ وآدَمِيَّتِنا الَّتِي كُرِّمْنَا بها.

ولكن يا صاحبي، لا يزال أمامنا مَتَّسَعٌ من الوقت لنُزيلَ هذا التَّلوُّثَ، ونَصْدِرَ حُكْمَ العَفْوِ عن أخطاءٍ من نُحِبُّ، ولنعودَ إلى طَرِيقِ اللهِ، وعَفى اللهُ عَمَّا سَلَفَ، ونَفْتَحُ صفحةً بيضاءَ نَبْدَأُها بـ "بِسْمِ اللهِ"، وَنُعَمِّرُها بالخيرِ...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

✦ ✦ ✦

(31)

"هلوسات مُنتصَفِ الليل"

أيَحكُمُ الإنسانُ على نَفسِهِ بِالفَشَلِ قَبلَ أنْ يَبدَأ؟

في بَعضِ الأحيانِ، يَتَملَّكُ الإنسانَ شُعورٌ ماهيَّتُهُ أنَّهُ مَحكومٌ عليهِ بالفَشَلِ قَبلَ أن يَخطُو خُطوَتَهُ الأُولَى نَحوَ هَدَفِهِ، وذلك بناءً على مُعطياتٍ قد بَصِرَها مِن حَولِهِ في تِلكَ البِيئةِ التي يَسعَى أن يُحَقِّقَ هَدَفَهُ فيها؛ كالمُبالاةِ والتَّهاوُنِ الذي يُؤَدِّي إلى الفَوضَى اللَّامَنطِقيَّةِ العارِمَةِ في المكانِ الذي يَجِبُ أنْ تَنطلِقَ منهُ رِحلةُ الإقلَاعِ نَحوَ المُبتغَى.

يا صاحِبي،

إنَّ الوُصولَ إلى الهَدَفِ في بِيئةٍ غَيرِ صالِحَةٍ، تَشُوبُها النِّزاعاتُ والفَسادُ وشُحُّ الأمرِ، لَيسَ بِالهَيِّنِ، وفي الغالِبِ يَكونُ مُستَحيلًا.

فَكيفَ لشَجَرَةٍ خَضرَاءَ أنْ تَنمُو في عُمقِ الصَّحراءِ؟

وكَيفَ لِزَهرَةِ الإخْوانِ أنْ تَنمُو في الوَحلِ؟

إنَّ الأمرَ يَتَطَلَّبُ بَذلَ الكَثيرِ الكَثيرِ، وكَرِّر الكَثِيرَ حتَّى المِئةِ مِن الجُهدِ، وأُكثَر، وكَرِّر أكثَرَ حتَّى الألْفِ مِن الصَّبرِ، كَما يَتَطَلَّبُ هِمَّةً وثِقَةً عالِيَةً تَصِلُ عَنانَ السَّماءِ، فَتُناجِي الخَالِقَ لِمَدِّ العَونِ الإلهيّ.

فِعلًا، الأمْرُ يَتَطَلَّبُ حَتمًا المُعجِزَةَ الإلهيَّة.

فَيا وَنِيسِي، استَودِعِ اللهَ أحلامَكَ وأهدافَكَ كُلَّهَا، تِلكَ التي يَصعُبُ عَلَيكَ تَحقِيقُهَا، والتي لا يَصعُبُ عَلَيكَ ذلك.

فَمِنَّا السَّعْيُ ومِن اللهِ التَّوفيقُ، وعَلَينا الرِّضا بالحَصَادِ مَهْمَا كَانَ وَفِيرًا أو شَحِيحًا.

واعلَم أنَّ الخِيرَةَ فِيمَا اختَارَهُ اللهُ.

(32)

"سَرِقَةٌ ثَمينَةٌ"

كان لي صديقٌ...

لي صديقٌ أشعُرُ بأنَّ الزَّمَنَ قد أَفلَحَ في سَرِقَتِهِ مِني، لا أعلَمُ إن تاهَ عَني أَم تِهتُ عَنهُ.

أَعلَمُ بأنَّ آخِرَ لِقاءٍ لَنا كانَ مَشحونًا بِالتَّوَتُرِ والنِّزاعاتِ.

في ذاكَ اليومِ، كُنتُ لَستُ على ما يُرامُ، كانَ داخِلي مُتَزَعزِعًا، وَعَقلي مُشَتَتًا، وَقَلبي في ضَياعٍ تامٍ، ولازِلتُ مُنذُ ذاكَ الوَقتِ عَلى هَذا الحالِ.

يا صاحِبي، لا أَعلَمُ مِن أَينَ أبدأُ؟ أَبِعِتابِكَ، أَم بالصُّراخِ في وَجهِكَ، أَم أَروي لَكَ رِوايَةً تَعرِفُ كُلَّ تَفاصيلِهَا؟

يا صاحِبي، اختَرتَ تَوقيتًا خاطِئًا لِلابتِعادِ. كُنتُ بِأَمَسِّ الحاجَةِ لِوُجودِكَ ولازِلتُ، ولكِنَّكَ ابتعدتَ في اللَّحظَةِ الَّتي احتَجتُكَ فيها.

كَم كانَ سَيَكونُ الأَمرُ أَهوَنَ وأَسهَلَ على روحي لَو كُنتَ مَعي، لكِنَّ القَدَرَ وَضَعَكَ في مُفتَرَقِ السَّبيلِ، لِأُكمِلَ طَريقًا أتيهُ فيهِ وَحدي، وأَتَعَثَّرُ في حِجارَتِهِ ولا أَجِدُكَ تُمسِكُ بِيَدي، وأَبكي فيهِ حَتى يَثقُلَ رأسي ولا أَجِدُ كَتِفَكَ ليَسنِدَني.

جَعَلتَني أَسيرُ في طَريقٍ أَحمِلُ فيهِ أَعباءَ وَعِبءُ ابتِعادِكَ، وأَطرُقُ كُلَّ بابٍ يُقابِلُني لَعَلي أَجِدُ المُواساةَ، ولكِن مَن يُواسي غَريبًا؟!

كَم كانَ ثَقيلًا عَلى كَاهِلي حَملُ أَعبائي وَعِبءُ اللُّجوءِ إلى الغُرَباءِ؟

كانَ جِدًّا ثَقيلًا، انحَنَت لِثُقلِهِ روحي واحدَودَبَت.

يا صاحِبي، عُد لِطَريقي، عُد لِسَبيلي، عُد لِروحٍ تَستَكينُ بِكَ حَتى في نَشوَةِ آلامِها وَلَحَظاتِ انكِسارِها؛ فَما نَفعُ الصَّديقِ إن لَم يَكُن مَعي وَقتَ الضِّيقِ؟ وَما نَفعُهُ إنِ اتَّخَذَ النِّزاعاتِ حُجَةً ليبتَعِدَ في أَوقاتِ الحاجَةِ؟

لا تَبتَعِد أَكثَرَ، فَشَعرَةُ الوِصالِ على وَشَكِ أَن تَنقَطِعَ، وإِنِّي أَسعى لِجعلِها أَمتَنَ، فَلا تُضعِف عَزمي عَلى ذلِكَ رُغمَ المُعاناةِ...

✦ ✦ ✦

(33)

"متغافلون أم غافلون؟"

التلوُّثُ البَصَريُّ، التلوُّثُ الضوضائيُّ، الفوضى التي تَعمُّ المكانَ، ذاكَ الازدحامُ مِن الأخطاءِ التي تتَناثَرُ أمامَ أعيُنِنا... تَغافُلُنا عن كلِّ هذا سيقودُنا إلى الفَشَلِ، إلى الضَّعفِ، ثُمَّ إلى التَّلاشِي.

يا صاحِبي،

إنَّنا نفقِدُ الأرواحَ، فنَنقُصُ عَدَدًا، ونَنقُصُ هِمَّةً ومَرتَبَةً في كلِّ يومٍ.

جَرائِمُ تُرتَكَبُ في الصَّباحِ تَحتَ نورِ الشَّمسِ وبَصيرةِ المَرءِ، وفي المَساءِ تَحتَ جُنحِ الظَّلامِ.

شَلَّالُ المُهاجِرِينَ عَبرَ البِحارِ لا يَتَوَقَّفُ، والمَوتُ فاغِرٌ فَمَهُ لهُم.

جَنازِيرُ المُخَدِّراتِ تُكَبِّلُ مَعاصِمَ الشَّبابِ، فَتَخُورُ قُوَّةُ البِلادِ دُونَهُم.

سُوسَةُ الإهمالِ تَنخُرُ عِظامَ الكادِحِينَ الذينَ يُبذِلونَ قُصارى جُهدِهِم لِلصُّعودِ إلى القِمَّةِ، في ظِلِّ ظُروفٍ أقلُّ ما يُقالُ عنها إنَّها قاسِيَةٌ.

يا صاحِبي،

إنَّنا نَغفُلُ عن الأخطاءِ البَسيطَةِ حتَّى تُصبِحَ كارِثِيَّةً لا حَلَّ لها ولا مَخرَجَ منها، ونتغافَلُ عن الكَوارِثِ وكأنْ لا وُجُودَ لها.

نَحنُ نَسِيرُ إلى الهاوِيَةِ، بَلْ نَركُضُ نَحوَها.

✦ ✦ ✦

(34)

"الأخلاق"

الأخلاقُ عنوانُ البَشَرِ، فمن أخلاقِكَ أستدلُّ على ماهيَّتِكَ ومضمونِكَ.

يا صاحِبي، الأخلاقُ لغةٌ موحَّدةٌ بينَ الشُّعوبِ، ومَعاييرُ ثابتةٌ تصلُحُ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وهي حَجَرُ الأساسِ لاستمراريَّةِ التَّعامُلِ بينَنا.

والتَّجرُّدُ منها عُريٌ فاضِحٌ نفقِدُ فيهِ الإنسانَ الذي كرَّمَنا اللهُ به، فَنُصبِحُ مَنبوذِينَ في مُجتمَعِنا، ونَكونُ أمَّةً في أسفَلِ السَّافِلينَ.

لذلك، يا عَزيزِي وصاحِبي، قبلَ أن تكونَ ذا مكانةٍ رفيعةٍ في العِلمِ والعُلومِ، كُنْ على خُلُقٍ حسنٍ، فالعِلمُ دونَ أخلاقٍ جريمةٌ، والأخلاقُ دونَ عِلمٍ فَضِيلَةٌ، وبالأخلاقِ والعِلمِ معًا نَبني أمَّةً عظيمةً في أعلى القِمَمِ.

يُمكِنُنا التَّعامُلُ مع صاحبِ الأخلاقِ بغضِّ النَّظرِ عن مُستواهُ العِلميِّ، ولكن لا يُمكِنُنا التَّعامُلُ معَ صاحبِ الدَّرَجاتِ العُليا في العِلمِ إن كانَ مُستوى أخلاقِهِ دَنيئًا.

عن ثابت، عن أنس، عن رسولِ الله ﷺ قال:

"إنَّ العبدَ ليبلغُ بحسنِ خُلُقِهِ عظيمَ درجاتِ الآخرةِ، وشرفَ المنازلِ، وإنَّهُ لضعيفُ العبادةِ، وإنَّهُ ليبلغُ بسوءِ خُلُقِهِ أسفلَ دَرْكٍ مِنْ جَهَنَّمَ وهو عابدٌ".

(35)

"غُربةُ الرّوح"

إنَّ الشَّقاءَ، يا وَنيسي، يكونُ حينَ تأخذُ الغُربةُ من قلبِكَ مَأوًى لها، حينَ يكونُ الجميعُ حولَكَ ولكن لا يُمكنُكَ البَوحُ بسَرِيرَتِكَ لأيٍّ منهم، بل تَعجَزُ عجزًا تامًّا عن التَّعبيرِ، وتتعثَّرُ الكلماتُ في حَنجرتِكَ، فتتفكَّكُ إلى أحرفٍ مُبعثَرةٍ، يُصبِحُ البَوحُ بها بلا معنى.

فإنْ كُنتَ تَملِكُ شخصًا واحدًا على الأقلِّ، يُمكنُكَ أن تكونَ أمامَه شفَّافًا إلى أبعدِ الحدودِ، ويُمكِنُكَ الفَضفَضةُ معهُ على بَساطٍ أحمَديٍّ، وبكُلِّ صراحةٍ وحُرّيةٍ، وبكُلِّ دُموعٍ مُنهمِرةٍ، دونَ أنْ تستَيقِظَ في الصَّباحِ التَّالي على أخبارِكَ تُغرِّدُ بها ألسِنةُ العامَّةِ في الشَّوارعِ والأزقَّةِ، ودونَ أنْ تَهتزَّ صورتُكَ الجميلةُ في عُيونِ من فَضفضتَ إليه؛ فأنتَ هكذا بعيدٌ كلَّ البُعدِ عن الشَّقاءِ رغمَ تعدُّدِ أشكالِهِ.

فكُنْ، يا وَنيسي، ذاكَ الوَنيسَ الذي يَحمي رُوحي من غُربتِها وشَقائِها...

(36)

"المحظورُ مُباحٌ"

إنَّ الاعتيادَ على المحظوراتِ والمُحرَّماتِ أمرٌ باتَ كالعَدوى المَرضيَّةِ، مُتفشِّيًا في كُلِّ المُجتمعِ، وإنَّهُ أمرٌ يُثيرُ حفيظَتي، ويزرعُ الرُّعبَ بداخِلي، ودائمًا ما يجعلُني أطرحُ سُؤالًا على نَفسي:

يا تُرى، ما هو السَّببُ الذي يجعلُ شاهِدَ عِيانٍ لجريمةِ قَتلٍ حَدَثَت أمامَ عَينَيهِ، وعلى مَقرُبةٍ منهُ، يَروي لنا تَفاصيلَ أحداثِها ببُرودٍ تامٍّ، دُونَ أنْ يَتَلعثَمَ في الكلامِ، ودُونَ أنْ تَرتجِفَ يَداه، أو تَعلُوَ علاماتُ الصَّدمةِ على ملامِحِهِ من هَولِ ما رأى؟

وما السَّببُ الذي يَجعَلُنا نتحدَّثُ عن موضوعِ المثليينَ وتواجُدِهِم ضِمنَ أفرادِ أُمَّتِنا الإسلاميَّةِ بطريقةٍ عابرةٍ عاديَّةٍ، بلْ ونَجدُ من يُدافِعُ عنهُم ويَجعَلُ لهم حُقوقًا مَشروعةً؟!

وما السَّببُ الذي يَجعَلُنا نُعايشُ الفسادَ بدلًا من مُحاربتِهِ؟

وما السَّببُ الذي يَجعَلُنا نَهتِفُ لراقِصَةٍ ونُمجِّدُها، ونُدعِّمُها، وبالمُقابِلِ نَتهكَّمُ على المُعلِّمةِ، ونَضطهِدُها، ونَسلِبُها حَقَّها؟

وما السَّببُ الذي جَعلَنا نَنظُرُ إلى التَّعري والتَّجرُّدِ من الثِّيابِ بمنظورِ الرُّقيِّ والمُوضَةِ، وبالمُقابِلِ نَنظُرُ إلى الحِجابِ على أنَّهُ تَطرُّفٌ دينيٌّ وأمرٌ مُثيرٌ للجَدَلِ والاستِغرابِ؟

لِماذا قُلبَت مَوازينُ المَنطِقِ والدِّينِ في مُجتمعاتِنا؟

هل شُلَّت مَشاعِرُنا من كَثرَةِ الكَوارِثِ، فأصبَحَت رُدودُ أفعالِنا تُجاهَها باردةً عابرةً؟

هل اعتادَتِ النَّفسُ على رُؤيةِ الحَرامِ واستِساغةِ المحظوراتِ؟

أُريدُ مَن يُجيبُني، يا صاحِبي، فإنِّي لا أُطيقُ الصَّمتَ عن هذا طويلًا...

(37)

"عابِرو سَبيلٍ"

البدايةُ: خُلِقنا من ماءٍ مَهينٍ، والنِّهايةُ تحتَ الأرضِ، وما بينَ البدايةِ والنِّهايةِ نحنُ عابِرو سَبيلٍ في حياةِ بعضِنا، وفي هذه الدُّنيا.

ذاهِبونَ لا مَحال، راحِلونَ لا مَحال، وليسَ لنا فيها مَقام، تارِكينَ وراءَنا كُلَّ شيءٍ، ولن نَأْخُذَ معنا شيئًا إلى دارِ المَقامِ، إلَّا شيئَينِ اثنَينِ:

عبادتُكَ للخالِقِ، وحُسنُ المُعاملةِ والمَعروفُ لِخلقِهِ.

فاحرِصْ كُلَّ الحِرصِ على الخُروجِ مِنها بِهما، حتَّى تَحصُلَ على تأشيرةِ الدُّخولِ إلى دارِ المَقامِ برَحمةِ ربِّك.

واترُك وراءَكَ بَصمةً ذاتَ أثرٍ طيِّبٍ في نُفوسِ مَن عَرَفتَ ومَن عَرَفَكَ، اترُكْ لهُم كَلِماتٍ مِن بَلسَمٍ تَشفي قُلوبَهُم عندَ ذِكرِكَ، وأفعالًا يُترحَّمُ بِها عليكَ.

فيا صاحِبي، أُذَكِّرُكَ وأُذَكِّرُ نَفسي، فإنَّ الذِّكرى تَنفَعُ المُؤمنينَ، بأنَّنا فيها عابِرونَ، فلنزرَعِ الحُبَّ والأُلفةَ بينَ القُلوبِ قبلَ الرَّحيلِ.

✦ ✦ ✦

(38)

"تُرجمانُ الحُب"

أيُّها الإنسانُ، إنَّ اللهَ من فرطِ حُبِّهِ إليكَ يناديكَ في اليومِ خمسَ مراتٍ، وجعلَ بابهُ مفتوحًا لك في كلِّ حينٍ، ومتى ما أردتَ، فهو لا يردُّ أحدًا أبدًا.

والآنَ فيكَ من روحِ اللهِ، اجعلِ الحُبَّ يَشُعُّ من كلِّ جُزءٍ فيكَ، اجعلِ الحبَّ يتجلَّى في تعابيرِ وجهكَ بالبشاشةِ والتبسُمِ في وجهِ أخيكَ.

واجعلِ الحبَّ يتجلَّى في ملافِظِ لِسانِكَ بحُسنِ الكلامِ المتَّزنِ. دع يدكَ تعملُ بالحُبِّ، وقدَمكَ تأخذُك إليه.

يا صاحبي، إنَّ حبلَ نجاتِكَ في هذه الدنيا هو الحبُّ.

لذا، املأْ كؤوسَ فؤادِكَ بِهِ، واجعلها تفيضُ بالحبِّ.

إنَّ ترجمانَ الحبِّ يتجلَّى في العطاءِ، الرحمةِ والمودةِ، الإيثارِ، وربما التضحيةِ، إذ أردتَ التحصُّنَ من دنسِ الدنيا الفانية، إذ أردتَ السلامةَ لقلبِكَ، والعفةَ لروحِكَ، وصونَ لسانِكَ، ما عليكَ إلَّا أن تتشبَّعَ بالحبِّ وتعملَ به.

هذِّبْ نفسَكَ به، هذِّبْ نفسَكَ بأن تحبَّ لغيرِك ما تحبُّه لنفسِك.

ازرَعْ بذرةَ الحبِّ، واجنِ منها ثمرةَ العطاء.

(39)

"صَدَى القَلْب"

أنا لستُ بخيرٍ يا صديقي...

داخلي مَهجورٌ تمامًا، يَسكنُهُ بَرْدُ الغيابِ، ورياحُ الهِجرانِ عَبَثَتْ بآمالي وأُمنياتي، كُلُّ شيءٍ آلَ إلى الخرابِ.

داخلي أصبحَ مُوحِشًا، تَتراقصُ فيهِ أشباحُ الأفكارِ الانتحاريةِ، والسَّوادُ هنا يَخنقُ المكانَ بالعُتمةِ.

لم أعد أشعرُ بلذَّةِ الأشياءِ مِن حَولي، وكأنَّ القلبَ تبدَّلَ شِغافُهُ إلى طبقةٍ مِن الجليدِ القاسي، لم يَعُدْ يَنبِضُ لفرحٍ ولا لحُزنٍ، وأحلامُهُ أكلَها الصَّدأُ.

أنا لستُ بخيرٍ يا وَنِيسي...

إنِّي أُصارِعُ وحدي هذا العالمَ البَشِعَ الذي يَسكنُني مُنذُ زمنٍ، أشعُرُ أنّني على قَيْدِ الاستسلامِ.

عَقلي الذي يَقودُ الحربَ ضِدَّ داخلي المَهجورِ قد أصابَهُ الأَرَقُ مِن طُوفانِ الأفكارِ العبثيَّةِ، وبدأ يَقُودُني نحوَ الجُنُونِ والصَّرَعِ...

لم يَعُدْ لديَّ وسيلةٌ للنَّجاةِ إلَّا أنتَ يا صاحبي، أنا بحاجةٍ لمن يَصقُلُ عنِّي صَدَى القَلْبِ.

✦ ✦ ✦

(40)

"تفاصيل صغيرة"

يا صاحِبي، يُمكِنُ للحياةِ أن تُلامِسَ رُوحَكَ بِأنامِلِ السَّعادةِ من خِلالِ التَّفاصيلِ الصغيرةِ.

افتحْ نوافذَ قلبِكَ للحياةِ، حينها ستُسعِدُكَ أشعَّةُ شمسٍ دافئةٍ، وضوءُ قمرٍ ساطعٍ، وشهابٌ وَمَضَ سريعًا في سماءِ لَيلةٍ مُظلمةٍ، وتأمُّلٌ في الطَّبيعةِ تحتَ مظلَّةِ الهدوءِ.

ستُسعِدُكَ رائِحَةُ القهوةِ صباحًا، وعُبقُ المَطَرِ شِتاءً، وَنَسيمُ البحرِ صيفًا.

ستُسعِدُكَ ابتسامةٌ رُسِمَت عَلى شَفاهِ أخيكَ حينَ يراكَ، ويُسعِدُكَ الاستماعُ لحديثِ الأجدادِ عن الأرضِ وعِمَارِها، وأنَّها لا تَهُونُ ولا تُهَانُ.

ويُسعِدُكَ ضجيجُ الأطفالِ مِن حولِكَ، ورسالةٌ مِن صديقٍ يسألُ عنكَ، وحديثٌ عابرٌ معَ غريبٍ.

ويُسعِدُكَ صمتُ الليلِ والخَلوةُ فيهِ بِنَفْسِكَ ومُسَامَرَتُها، وتُسعِدُكَ العُزلةُ معَ كتابٍ.

يا وَنِيسي، انظُر إلى التَّفاصيلِ الصَغيرَةِ بعينِ الحُبِّ والنِّعمةِ، تأنَس بِها.

✦ ✦ ✦

(41)

"لحنُ الحياة"

يا صاحِبي، تَمَسَّك بِيدِ الأَحلامِ، وارحَل حَيثُ يَكونُ السَّلَامُ، بَعيدًا عَن ضَجيجِ هَذا العّالَمِ وَناطِحاتِهِ الواهيةِ، الَّتي تُغَطِّي مَظهَرَهُ المُخادِعَ، بَعيدًا عَن بَعثَراتِ النَّفسِ وَشُجونِها.

وَأَغدِق مَشاعِرَكَ عَلى مَن تُحِبُّ كَما تُغدِقُ السَّماءُ أَمطارَها، وَكُن لِعطَفِ الَّذي يَمنَحُ القُلوبَ الدِّفءَ، فَإِنَّ الفِراقَ يَتَرَبَّصُ بِنا، وَهو زائِرٌ مَمقُوتٌ يأتِي فَجأَةً، وَلا يَعرِفُ الاستِئذانَ.

وَامنَح قَلبَكَ السُّلطَةَ لِتَحريرِ مَشاعِرِهِ، وَاترُكِ الحَياةَ تُدَغدِغُ روحَكَ، وَتَعزِفُ عَلى وَتَرِها لَحنَ الهُدوءِ الخالِدَ.

وَاغرَق في حُبِّها وَحُبِّ السَّلامِ...

✦ ✦ ✦

(42)

"للحبِّ مقام"

يا ونيسي، للمحبَّةِ مَقاماتٌ، فَمَن تُخبِرُهُ بأنَّ يومَكَ سارَ عَلى ما يُرامُ لَيسَ كَمَن تُفصِحُ لَهُ عَن أَدَقِّ تَفاصِيلِ يومِكَ.

وَمَن يَحسَبُ صَمتَكَ صَمتًا لَيسَ كَمَن يَستَمِعُ لِحَديثِ صَمتِكَ، وَيَقرَأُ سُكونَ شِفاهِكَ وَلِسانِكَ فِي عَينَيكَ.

وَما عَلَيكَ يَا صاحِبِي فِي هَذِهِ الحَياةِ إِلَّا أَن تَزرَعَ الحُبَّ فِي القُلوبِ وَتَمضِي.

فَمَن كانَتْ أَرضُ فُؤادِهِ خَصبَةٌ، رأَيتَ ثِمارَ حُبِّكَ فيهِ لينًا وَوُدًّا،

وَمَن كانَت أَرضُ فُؤادِهِ قاحِلَةً، فَاهجُرهُ هَجرًا جَميلًا، فَلَن تَحصُدَ إِلَّا الرِّمالَ، وَلَو زَرَعتَ أَطنانًا مِن الحُبِّ.

وَلَكِن، كَم يُوسِفُني يا صاحِبِي، أَنْ يَكُون لَكَ أَصدِقاءٌ لَا يَعلَمُونَ عَنكَ شَيئًا إِلَّا أَنَّكَ لَا زِلتَ عَلَى قَيدِ الحَياةِ...

✦ ✦ ✦

(43)

"سباق مروّع"

أنظرُ يمينًا وَيسارًا، أُطيلُ التأمُّلَ في السماءِ وفي الأرضِ، أحاولُ أن أستوعِبَ ما يجري حولي، لكنَّني يا صاحبي لا أرى سوى السُّرعةَ القصوى في ركضِ الزمنِ.

سرعةٌ مُخيفةٌ يرتجفُ لها القلبَ رُعبًا، ويقفُ أمامَها العقلُ مذهولًا، يركضُ الزمنُ، ونحنُ نركضُ وراءَهُ لاهِثين، مُتناحرينَ على الفناءِ، خائفينَ من فواتِ المستقبلِ فيهِ، تائهينَ بينَ عقاربِ ساعاتِ وَغدرِهِ بنا، متناسينَ أنَّ الزمنَ باقٍ ونحنُ الزائلونَ...

يا صاحبي، لا جدوى من السّباقِ مع الزمنِ، فقط اغتَنم دقائِقَهُ في طاعةِ اللهِ، وفي صُحبةِ مَن تُحبُ، وفي تحصينِ قلبِكَ من القسوةِ وعبَثيّةِ الحياةِ...

(44)

"رحلةُ الدَّربِ"

مَع كُلِّ رِحلَةٍ فِي مَركَبِ العُمرِ الَّذي يُبحَرُ بِنا فِي هَذِهِ الحَياةِ، يَترُكُ خِنجَرُ الفَقدانِ آثارَهُ عَلى خاصِرَةِ الرُّوحِ وَيُزَعزِعُ الإتزانَ فِي داخِلِنا وَيَسرِقُ لَحَظاتِ الأَمانِ مِنَّا، وَيَدُسُّ سُمَّ الخَوفِ بَينَ أَوتارِ القُلوبِ وَمِن ثَمَّ يَسْري في أَجسَادِنا وَيُفسِدُها بِالهُزالِ.

يا صاحِبي إنَّ الفَقدانَ يَأخُذُ نَصِيبَهُ مِن أَرواحِنا في كُلِّ يَومٍ فَأهجُرِ الهَجرَ، وَعُد لِقَلبٍ أَحبَبتَهُ وَأَحَبَّكَ، وَأسقِهِ بُذورَ الأَمانِ بِالوُدِّ لِتَنمُوا مِن جَديدٍ وَمُدِّ حَبلَ الوِصالِ بَينَ القُلوبِ لِيَسكُنَها العَمارُ وَالسَّلامُ.

فَإنَّ رونَقَ الحَياةِ صَديقٌ صَدوقٌ صادِقٌ فِي وُدِّهِ يُحيطُ قَلبَكَ بِالأَمانِ، يَجعَلُكَ تَرقُصُ عَلى أَنغامِ التِّلقائِيَّةِ وَالعَفويَّةِ دُونَ قُيودِ الإنتِقائِيَّةِ في اَلْمُفرَداتِ وَالتَّصَرُّفاتِ وَالأَقنِعَةِ.

يَجعَلُكَ أَنتَ كَما أَنا، باطِنُكَ يُرسَمُ عَلى مَلامِحِكَ.

لِذا دَعنا نَسيرُ إلى النِّهايَةِ مَعًا...

✦ ✦ ✦

(45)

"خطورة المنتصف"

يا صاحِبي، قَد نالَ مِنكَ التَّعَبُ، وَأَرهَقَتكَ الحَياةُ بِما فيهِ الكَفايَةُ، قَد نَقَشَت هُمومَها عَلى مَسامِّ جِلدِكَ، وَجَعَلَت مِن مَدامِعِكَ سَواقي لَا يَنضَحُ ماؤهَا.

أَعلَمُ أَنَّ اليَأسَ ما عادَ يَسرِي فِي أَوصالِكَ وَحَسبُ، إِنَّما تَغَلغَلَ في روحِكَ وَأَصابَ قَلبَكَ بِأَلَمِ الإِحتِشاءِ.

أَعلَمُ أَنَّكَ تُريدُ أَنْ تَترُكَ كُلَّ شَيءٍ لِتَراحَ، تُرِيدُ الرَّحِيلَ، تُريدُ الهِجرَةَ، رُبَّما تُريدُ المَوتَ، لَا يَهُمُّ وَلَكِنَّكَ تُريدُ أَن تُراحَ.

لَكِن يا صاحِبي، لَطالَما كُنتَ شُعلَةَ الأَمَلِ فِينا حِينَ يَغزو التَّشاؤمُ أَفئِدَتَنا، وَكُنتَ مَحَطَّةَ الوُقودِ الَّتي نَستَمِدُّ مِنْها الإِرادَةَ وَالعَزيمَةَ حِينَ نَنطَفِئُ.

هَل نَسمَحُ لَكَ أَنْ تَترُكَ قَبضَةَ يَدِكَ وَيَرتَخي مَعصِمُكَ، وَتَضعِفُ ساعِداكَ فِي مُنتَصَفِ السَّبيلِ؟

الإفلاتُ فِي المُنتَصَفِ قَد يَكونُ خِيارًا مُريحًا وَلَكِن لَنْ تَدومَ الرَّاحَةُ فِيهِ.

سَتَغرَقُ وَتَتَعَفَّنُ جُثَّتُكَ فِي المُنتَصَفِ، سَتَتَلاشَى كَأَنَّكَ لَم تَكُن.

عَلَيكَ مُتابَعَةُ المَسيرِ، عَلى خُطاكَ أَنْ تَتبَعَ نورَ اللَّهِ لَو كانَ بَصيصًا، وَأَن تُؤمِنَ بِأَنَّ لَيسَ لِلْإِنسانِ إِلَّا ما سَعى، وَأَن تُؤمِنَ بِأَنَّ اللَّهَ لَيسَ عَلَيكَ بِغافِلٍ وَأَنَّهُ يَرى، وَأَنَّهُ سَيُرِيكَ طَريقَ الهُدى.

تُريدُ أَنْ تُراحَ؟

ذاكَ حَبلُ اللَّهِ فَأَعتَصِم بِهِ.

وَهَذا كَتِفي لَكَ وَسادَةٌ، وَهَذِهِ راحَةُ كَفّي تُربَتُ عَلى كَتِفِكَ، وَتَمسَحُ دَمعَكَ.

وَالأَمانُ يَسكُنُكَ يا صاحِبي.

✦ ✦ ✦

(46)

"الكلمة الطيبة"

يا صاحِبي اكسِبها، امتَهِنها، احتَرِفها، ازرَعها فِي سُلوكِكَ

وَرَدِّدها عَلَى لِسَانِكَ، ولتَكُن شَفاهُكَ مَخرَجًا لَها عَلى الدَّوامِ فَإِنَّ الكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ تُنيرُ الأفئِدَةَ ٱلْمُظلِمَةَ، وَتُنَبِّهُها مِن غَفلَتِها تَلِينُ القاسيَةَ مِّنها

وَتَنزِلُ بَردًا وَسَلامًا عَلى ٱلأَرواحِ ٱلخائِفَةِ ٱلتَّائِهَةِ.

يا صاحِبي، إِنَّ الكَلِمَةَ الطَّيِّبَةَ تَفصيلٌ مِّن تَفَاصيلِ دِينِنا

تُعَزِّزُ ٱلعلاقاتِ فِيما بَينَنا

تَزرَعُ بَينَنا زُهورًا تَفوحُ بِعَبيرِ ٱلْوُدِّ وَٱلأَمانِ وَتَبني بِها أُمَّةً تُعانِقُ ٱلسَّماءَ رُقِيًّا وَتَقَدُّمًا

وَلولا عِظَمَتِها في بِناءِ حَياتِنا نَحوَ ٱلْأَفضلِ ما نَطَقَ بِهَا ٱللَّهُ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُقَدَّسِ حَيثُ قَالَ:

"{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَاءِ (24) تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}"

يا صاحِبي...

تُعالَجُ ٱلْقَسوَةُ بِٱللِّينِ وٱلرِّقَّةِ

وَيَنهَزِمُ ٱلكُرهُ أَمامَ ٱلْحُبِّ وَٱلْوُدِّ

وَيَندَحِرُ ٱلحِقدُ أَمامَ ٱلتَّسامُحِ

يَتلاشَى ٱلخَوفُ بِٱلِاحتِواءِ

يَتَحَطَّمُ ٱلجَهلُ بِٱلعِلمِ

وَتَتَقَدَّمُ ٱلْإِنسانُ بِٱلكَلِمَةِ ٱلطَّيِّبَةِ وٱلنَّقدِ ٱلْبَنَّاءِ وَتَتَقَدَّمُ ٱلأُمَمُ بِٱلمَعرِفَةِ، وَكُلُّ سَليمٍ شاهِقٍ فِي عُلوهِ، مَتينٌ فِي قَوَامِهِ، تَكونُ قَواعِدُهُ بُنيَت على كَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ.

✦ ✦ ✦

(47)

"نوافذ"

يا صاحِبي، لِكُلِّ نافِذَةٍ حِكايَةٌ تُحكى لَنا تفاصيلَ ٱلْمَكانِ تُنَبِّهُ ٱلْحَواسَّ، تُعطي معنًى لِلوجودِ نُحِيكُ مِنْ خِلالِهَا نَسِيجًا مِّنَ ٱلأَحلامِ ٱلْمُطَرَّزَةِ بِآياتِ ٱلسَّلامِ وَٱلسَّلَامِ نَستلهِمُ عَبرَ شِبَّاكِهَا أَنوارَ ٱلشُّعورِ وَفَيضًا مِّنَ ٱلأَحاسيسِ ٱلَّتِي تُصقِّلُ ٱلْقُلُوبَ مِن أَنَّامِهَا وَتُحَرِّرُهَا مِن يأسِهَا عَبرَ هذِهِ ٱلنَّوافِذِ تَبحَرُ ٱلنَّفْسُ بِشِرَاعِ ٱلْأَمَلِ وَٱلْأُمنِيَاتِ نَحْوَ مَا تُحِبُّ وَتَهْوِي وَتَفِيضُ بِٱلعَطاءِ لِلحَياةِ وَكُلَّمَا حَافظتَ عَلَىٰ نَظافَةِ نافِذَتِكَ، كُلَّمَا ٱرتكَّ الجَمَالُ وَإِنَّ عُيونَ ٱلْمَرءِ نَافِذَتُهُ عَلَىٰ ٱلحَيَاةِ، كُلَّمَا صَقَّلَتهَا مِنَ ٱلْحِقدِ وَٱلْحَسَدِ... رَأى مِن خِلالِهَا ٱلْجَمَالَ وَٱلنَّقَاءِ...

✦ ✦ ✦

(48)

"الحقيقة والسراب"

يا صاحِبِي، لَرُبَّما كان في تَصدِيقِنا للوَهمِ سَلاَمٌ،

وفي اعْتِرافِنا بوجودِ الحَقِيقَةِ هَلَعٌ.

لِذَا نَحنُ نُنكِرُ المَوتَ، وَنَتَشَبَّثُ بِالحَيَاةِ، رَغمَ أَنَّنَا أَقرَبُ لِلمَوتِ مِنَ الحَيَاةِ، وَرَغمَ إِدرَاكِنا التَّامِّ أَنَّ الخُلُودَ فِي الحَيَاةِ وَهمٌ، وَأَنَّ المَوتَ هُوَ الحَقِيقَةُ الكَامِلَةُ وَالنِّهَايَةُ الَّتِي لا مَفَرَّ مِنهَا.

الخُلودُ وَهمٌ، وَالمَوتُ حَقِيقَةٌ،

وَمَعَ هذا تَرانَا نَركُضُ فِي الحَيَاةِ لِلحَياةِ رَكضَ الغَزَالِ، وَنَحسِبُ المَوتَ سَرَابًا.

عَلَينَا أَن نَتَذَكَّرَ الحَقِيقَةَ دَائِمًا، وَهِيَ: (لِلَّهِ مَا أَعْطَى، وَلِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَإِنَّ لِلَّهِ وَإِنَّ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ).

✦ ✦ ✦

(49)

"لمنتصف النهار حديث"

يا صاحِبي، وَآسَفاهُ على زَمَنِنا، نعيشُ في زَمَنٍ منَ الأزمِنَةِ الغابِرَةِ، سَهومُ الشَّرِّ فيها مُتَطايِرَةٌ، الكَذِبُ يَرتَدي ثَوبَ الحَقيقَةِ، وَالحَقيقَةُ أَضحَت عارِيَةً، فَنَرمِقُ الحَقيقَةَ بِنَظَراتِ العارِ، وَنَنظُرُ لِلكَذِبِ بِعينِ الوَقارِ.

حِبالُ الوَدِّ بَينَنا مَقطوعَةٌ، أَشرِعَةُ المَصالِحِ فينا مَرفوعَةٌ،

وَسارِقُنَا شَيخٌ،

وَشَيخُنا سَجينٌ،

مُعَلِّمُنا راقِصٌ،

وَطَبِيبُنا تاجِرٌ،

حاكِمُنا بَطَلٌ،

وَبَطَلُنا عَلَى دِماءِنا يُقامِرُ، وَبِقُوَّتِنا ياراهِنُ.

صَغيرُنا مِن الأَهوالِ هَرِمٌ، وَكَبيرُنا وَراءَ المُلهِياتِ يَتلو النَّغَمَ.

يا صاحِبي، إنَّ النَّجاةَ بِراهَفَةِ قَلْبِكَ، وَإِنسانِيَّتُكَ فِي هَذا العَصرِ هي إِنجَازٌ عَظيمٌ وَمَسؤولِيَّةٌ شاقَّةٌ عَلَيكَ تَحَمُّلُها، وَأَن تَكُونَ عَلى قَدَرٍ مِّنها، وَإِلَّا أَصبَحتَ صَعلوكًا مِن صَعاليكِ النِّفاقِ وَالمُقامَرَةِ الَّذينَ يُقامِرونَ بِكُلِّ شَيءٍ حَتى الكَرامَةِ.

عَجيبٌ هَذا الزَّمَنُ وَيا لَيتَ عَجائِبَ أَهلِهِ.

✦ ✦ ✦

(50)

"ربيعُ الفُقَراءِ"

يا صاحِبِي، هذه يَدِي بَيضاءُ من غيرِ أذًى تُمدُّ إليكَ لتزيحَ ما بينَنا من خصامٍ، وهذه شِفاهِي تَقرَؤُكَ السَّلامَ ليعودَ السَّلامُ يَسكنُ أرواحَنا، وهذا قَلبي يَهمِسُ بالدُّعاءِ لِرَبِّ السَّماءِ ليعودَ حَبلُ الوِصالِ ويَسري عَبرَهُ الوُدُّ.

لقد طالَ الخِصامُ يا صاحِبِي، وأخذَتِ القَطيعَةُ مِن عُمرِنا دَهرًا، فَهَل وَجَدتَ في ذلكَ مَنفَعَةً؟

أشعُرُ كأنَّ مَلامِحَكَ بَدَأتْ تَتَلاشَى، بِتُّ أختَلِسُ النَّظَرَ إليها كي أَستَعيدَ نَقشَها على الذَّاكِرَةِ، ولِيَطمَئِنَّ قَلبي، فقد أَصبَحتُ أَخشى يَومًا أَقِفُ فيهِ أمامَكَ فلا أَعرِفُكَ ولا تَعرِفُني.

يا صاحِبِي، أَيَزورُنا وَنَحنُ على خِصامٍ؟!

أَسْمَيناهُ شَهرَ عِبادَةٍ، أَوَلَيسَ التَّسامُحُ مِن العِبادَةِ؟!

أَسْمَيناهُ شَهرَ الغُفرانِ، أَنَرجُو الغُفرانَ مِنَ اللهِ وَنَحنُ لا نَغفِرُ لِبَعضِنا بَعضًا مِنَ الزَّلّاتِ؟!

وأَسْمَيناهُ شَهرَ الإسلامِ، أَوَلَيسَ مِنَ الإسلامِ أن نَمنَحَ لِبَعضِنا السَّلامَ؟!

أَسْمَيناهُ رَبيعَ الفُقَراءِ، لِكَي نَشعُرَ بِما يَشعُرونَ، وتَنفُسِطَ أَيادِينا المَغلُولَةُ إكرامًا لَهُم.

أَسْمَيناهُ شَهرَ الصَّبرِ، لِتَرويضِ النَّفسِ وَتَمرينِها على تَحَمُّلِ المَشاقِّ وَالصِّعابِ وَتَركِ المَلَذّاتِ وَالشَّهواتِ.

يا صاحِ، لِنَستَقبِلْهُ وَنَحنُ مَعًا بِقُلوبٍ صافِيَةٍ، وَنَوايا حَسَنَةٍ، وَأَرواحٍ طاهِرَةٍ.

(51)

"خَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ"

إلى أحبَّتي في كلِّ بِقاعِ الأرضِ

(كلُّ بَنِي آدمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ).

إنَّ طبيعةَ الحياةِ، يا صَديقي، حُبلى بالأخطاءِ والتَّقصيرِ، لا تَعتَرِفُ بعُمرٍ ولا جِنسٍ، لا أحدَ فينَا مَعصومٌ عنِ الخَطأِ فيها، ولا أحدَ مُنزَّهٌ عنِ التَّقصيرِ.

قد تُغرِقُنا الحياةُ في غَمَراتِها وسَكَراتِها، وتُلهينا بمَلذَّاتِها عنِ الخالِقِ وخَلقِهِ، فَتُنسينا الأَخَ والصَّديقَ، وَتُلبِسُنا رِداءَ التَّقصيرِ تَحتَ مِظلَّةِ الانشِغَالِ.

ولَكِنَّنا بَشَرٌ، وخُلِقنا بِالنَّقصِ، فلا كَمالَ إلَّا لِصاحِبِ الجلالِ والإكرامِ.

فلا ضَيرَ مِنَ الخَطأِ وَالتَّقصيرِ، ولكِنَّ كُلَّ الضَّيرِ فِي الاستِمرارِ فيهِ.

كُن طارِقًا مُلِحًّا عَلى بابِ التَّوبَةِ تَكُن عِندَ اللهِ مِنَ الخَيِّرينَ، وافتَح في قلبِكَ نَوافِذَ السَّماحِ والتَّسامُحِ، وأَخلِق لأَخيكَ فَوقَ السَّبعِينَ عُذرًا أَلفًا.

وَتَذَكَّر دائِمًا، يا صَديقي، إِنَّما هي دارُ زَوالٍ، وإِنَّنا فيها راحلونَ، فَلا تُغادِرها إِلّا وَخَلفَكَ أَثَرٌ مِنَ الطِّيبِ لا يُمحى، وَذِكرى تَفُوحُ بِعَبيرِهَا كالمِسكِ كُلَّما لَفَظَ أَحَدٌ حُروفَ اسمِكَ.

✦ ✦ ✦

(52)

"بُيُوتٌ"

يا وَنيسي وصاحِبي، إنْ سَألَتَني: ماذَا أُحِبُّ أَنْ أَمتَلِكَ؟

سأُجيبُ: أُحِبُّ أَنْ أَمتَلِكَ بَيتًا.

إنَّني أُؤمِنُ أَنَّ البُيوتَ لَيسَت جُدرانًا صَمّاءَ فَحَسبُ، وإنَّما فيها مِنَ الاحتِواءِ ما يَجعَلُني أَشعُرُ بِالأمانِ، وما يُغَلِّفُ قَلبي بِالدِّفءِ.

وإنْ سَألَتَني: كَيفَ أُحِبُّ أَن يَبدوَ هذا البَيتُ؟

سأُجيبُ:

أُحِبُّ كَثيرًا أَن يَكونَ لَهُ شُرفَةٌ واسِعَةٌ، لِلحَدِّ الَّذي يَنشَرِحُ فِيهِ قَلبي، لِأَنَّني أُحِبُّ أَن أَجلِسَ فيها صَباحًا وَأَشرَبَ قَهوَتي، وَتُشارِكُني فِي ذلِكَ نَسَماتُ الصَّباحِ وأُغنيَةٌ لِسَيِّدَةِ فَيروز.

كَما أَنَّني أُحِبُّ كَثيرًا أَن أَجلِسَ فيها لَيلًا،

فأَنا أُحِبُّ مُراقَبَةَ النُّجومِ وَشِهابِ اللَّيلِ السَّريعِ، ومُجالَسَةَ القَمَرِ في اللَّيالي الصَّيفيَّةِ، رَغمَ أَنَّني لَستُ مِن عُشَّاقِ الصَّيفِ، ولكن تَروقُ لي مُسامَرَةُ لَياليهِ الصَّافيَةِ.

وأُحِبُّ أَن أَقِفَ فيها طَويلًا لِمُشاهَدَةِ المَطَرِ شِتاءً، فأَنا مِن المُغرَمِينَ بِهذا الفَصلِ مِن السَّنَةِ.

وأُحِبُّ أَن يَكونَ لِبَيتي حَدِيقَةٌ تَحوي الوُرودَ والياسَمينَ، لِأُهدي كُلَّ يائِسٍ مِن الحَياةِ وَردَةَ الحَياةِ.

أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ بَعيدًا عَن ضَوضاءِ المَدينَةِ وَصَخَبِها، رَغمَ أَنَّني أُحِبُّ هُدُوءَ المَدينَةِ لَيلًا، وَكَم أَتَمنَّى أَن أَتَجَوَّلَ في شَوارِعِها، ولكِنَّني أَخافُ عَتمَتَها، أَحتاجُ إلى وَنيسٍ يُمسِكُ بيَدي وَيُجيدُ التَّحَدُّثَ وَيُجيدُ الاستِماعَ أَكثَرَ.

وأُحِبُّ أَن يَكونَ دَاخِلَ بَيتي زاوِيَتانِ لا يُمكِنُني الاستِغناءُ عَنهُما:

زاوِيَةٌ تَحوِي مَكتَبَةً عِملاقَةً مَليئَةً بِالكُتُبِ مِن شَتَّى العُلومِ، ولكِنَّني أُفَضِّلُ أَن تَكون مِن الأَدَبِ العَرَبِيِّ والطِّبِّ،

أَجلِسُ فيها لِساعاتٍ طِوالٍ، مُنعَزِلَةً عَن عالَمِ التِّكنولوجيا وتُرَّهاتِ تَطَوُّرِ هَذا العَصرِ.

تبًّا لِلتِّكنِلوجيا! كم أُبغِضُ تَعقيداتِها! إنَّها تُصيبُني بِالصُّداعِ والتَّصَدُّعِ!

أَمَّا الزَّاويةُ الأُخرى، فَهِيَ تَحوِي مَكتَبَةً صَغيرَةً فيها مُصحَفي وَسَجَّادَتي وَمِسبَحَتي وَكُتُبُ السّيرَةِ وَتَفسيرِ القُرآنِ، حَيثُ أُسَلِّمُ روحي وَنَفسي فيها إِلَى خالِقي، حَيثُ يُمكِنُني أَن أُظهِرَ ضَعفي وَعَجزي دُونَ خَوفٍ مِنَ الشَّامِتينَ، حَيثُ يُمكِنُني أَن أُفَضفِضَ وأُفَوِّضَ أَمري لَهُ بِكُلِّ أَمَانٍ.

وأَخيرًا، لا يَخلو مَنزِلٌ دُونَ ضَجيجِ الأَطفالِ، أُشاطِرُهُمُ اللَّعِبَ، وأَقُصُّ لَهُمُ الحِكايا، ويَحضُنونَ قَلبي بِكُلِّ لُطفٍ، وَيَغمُرونَ روحي بِكُلِّ وُدٍّ.

✦ ✦ ✦

(53)

"لا أنتمي لهم"

يا صاحِبي، أشعُرُ دائمًا أنّني لا أنتمي لهذا العالَمِ، روحِي تُناقِضُهُ تمامًا.

هو يعُجُّ بالفوضى، ورُوحِي تَبحَثُ عن الهُدوءِ.

هو يُبَجِّلُ التُّرّهَاتِ وسَفاسِفَ الأُمورِ، وروحِي تَبحَثُ عن المُقدَّساتِ.

هو يَعُجُّ بالنَّظَرِيَّاتِ والاحتِمالاتِ، وروحي تَبحَثُ عن اليَقينِ في كُلِّ شيءٍ.

هو يُرَوِّجُ للرَّذائِلِ، وروحي تُرَوِّجُ للقِيَمِ.

فكَيفَ لي أن أعيشَ في مكانٍ لا أنتمي إليه؟!

(54)

"يَدُ الغِيابِ"

الحياةُ مُفتَرَقُ الطُّرُقاتِ، فما إنْ نَلتقي حتّى يأتي الفِراقُ سريعًا على عَجَلةٍ مِنْ أمرِهِ ليقولَ: كَفاكُم، ويُخبِرَكَ بأنَّهُ حانَ وقتُ الوَداعِ.

تَسألُهُ: أَلستَ مُستَعجِلًا؟ فَنَحنُ لتوِّنا التقَينا

!

فيقولُ: ولتَوَّكُمُ تَفترِقون...

تَسألُهُ: ما المُبرِّرُ؟

ما الهدفُ مِنْ فِراقِنا؟

وما الهدفُ مِنْ أنْ تأتي سريعًا؟

على الأقلِّ تَمهَّل قليلًا...

فيقولُ: لا تُكثِرْ كَلامًا، وليَمضِ كُلٌّ مِنكُما في سَبيلِهِ حالًا.

فهُناكَ الكَثيرُ مِمَّن أُريدُ أنْ أَخطِفَ اللِّقاءَ مِنهُم، ولا أُريدُ أنْ أتأخَّرَ عن أحدٍ، يجبُ أنْ أُسرِعَ...

يا صاحِبِي، إنَّ يَدَ الغِيابِ تَطُولُ الجميعَ...

جميعُنا سَنَقَعُ في هذا الجُبِّ،

مِنَّا مَن يَمكُثُ فِيهِ وَيَعودُ، ومِنَّا مَن لا يَعودُ أبدًا.

وإنَّ جُبَّ الغيابِ مَرارٌ لِلغائِبِ والغائِبِ عنهُ،

يُصيبُ الفُؤادَ بِالشَّوقِ وَلَوعَتِهِ،

ويُصيبُ العَقلَ بِالسُّهادِ وَأَرَقِهِ،

يُصِيبُ الجَسَدَ بِالهُزالِ وَوَهَنِهِ،

ويَطحَنُ الرُّوحَ بَينَ فَكَّيِ الحَنينِ وَيُفقِدُها الشَّغَفَ.

يا صاحِبِي، ازرَعْ بُذورَ الحُبِّ حتّى يَستَظِلَّ غائِبُكَ بِشَجَرِها، واسقِ القُلوبَ مِن وِديانِ الوُدِّ حتّى يأنَسَ مَن غابَ عنكَ بِذِكرِها في لَيالي الوَحشَةِ...

وَاعلَمْ أنَّ لِلحياةِ وَالأقدارِ رأيًا آخَرَ يُخالِفُ رَأيَكَ، كما أنَّهُ يَجِبُ أنْ تَعلَمَ أنَّ الحياةَ بِأقدارِها لا تَمنَحُكَ ما تُريدُ، ولكِن كُن على يَقينٍ أنَّ القَدَرَ لا يُعطيكَ مُبتَغاكَ، ولكِنَّهُ يُعطيكَ ما يُناسِبُكَ.

لِذا تابِعِ المَسيرَ ما بَعدَ المُفتَرَقِ ولا تَتوقَّف، والغائِبُ يَعودُ، وإن لَم يَعُد فَذِكراهُ باقِيَةٌ.

✦ ✦ ✦

(55)

"اللَّهُ يَعلَمُ وَأَنتُم لَا تَعلَمُونَ"

يا صاحِبِي، إنَّ المَرءَ لا يَستاءُ مِن حَدَثٍ ما يَرى فِيهِ هَلاكَهُ مِنْ وَجهَةِ نَظَرِهِ القاصِرَةِ، ولَكِنَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ فِيهِ كُلُّ الخَيرِ.

فَفي الفِراقِ والفَقدانِ خَيرٌ إن صَبَرنا، وفي الرَّحيلِ والهَجرِ خَيرٌ إن صَبَرنا، وفي المَرَضِ خَيرٌ إن صَبَرنا.

قالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ المُؤمِنِ، إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيرٌ، وَلَيسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إلَّا لِلمُؤمِنِ، إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكانَ خَيرًا لَهُ، وَإنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكانَ خَيرًا لَهُ» [رواه مسلم].

يا صاحِبِي، لَيسَ عَلَينا كَعَبيدٍ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- سِوى السَّعيِ والصَّبرِ، ثُمَّ الرِّضا والتَّسليمِ.

وَلَيسَ التَّسليمُ كَالاستِسلامِ، فَالتَّسليمُ يَرتَكِزُ عَلَى ثَلاثِ رَكَائِزَ مُتَتالِيَةٍ: السَّعيُ، الصَّبرُ، الرِّضَا بِقَدَرِ اللَّهِ.

أَمَّا الاِستِسلامُ فَلَا رَكيزَةَ لَهُ، سِوى القُعُودِ والتَّذَمُّرِ وادِّعاءِ العَجزِ.

لِذَا يا صاحِبِي، لا تُرهِق نَفسَكَ بِتَحليلِ الأَقدارِ وَمُجرَياتِ الحَياةِ، وَلَا تُكَدِّر صَفوَ عَيشِكَ بِشَيءٍ لَم يَكتُبهُ اللَّهُ لَكَ فِي كِتابِكَ.

فَقَط، ثَبِّت رَكائِزَ التَّسليمِ في أَعماقِكَ، وانتَهِج مَنهَجَ "وَلَعَلَّ الخَيرَ يَكمُنُ فِي الشَّرِّ".

والسَّلامُ مِنِّي وَعَلَيكَ وَلَكَ يَا وَنيسي...

✦ ✦ ✦

(56)

"مُفتَطَفاتُ وُدٍّ"

إنَّ شَمسَ النَّهارِ حينَ تُشرِقُ عَلى خَبايا اللَّيلِ، وَما كانَ في عَتمَتِهِ مِن خَيباتٍ وَآهاتٍ وأَشواكِ حَنينٍ تُؤرِقُ المَضاجِعَ، فَإنَها كَفيلَةٌ بِتَرميمِ أَشلاءِ الرُّوحِ التي بَعثَرَها اللَّيلُ بَينَ وَجَعِ الذِّكرياتِ وَسَيلِ الأَفكارِ الهادِرِ.

افتَح نَوافِذَكَ في كُلِ صَباحٍ، دَع شَمسَ السَّماءِ تُعانِقُ ظَلامَ فُؤادِكَ فَيَتَلاشى،

وَاستَعِذ بِاللهِ مِن كُلِ شَرٍ وَمِن شَرِ الشَّيطانِ وَشَرِ النَّفسِ وَشَرِ البَشَرِ...

يا صاحِبي...

أَنتَ نُورٌ تَتَلاشى بِهِ عَتمَتي،

وَيَدٌ بَيضاءُ تَتَمَسكُ بي عِندَما يَختَلُ تَوازُني.

يا صاحِبي، بِصُحبَتِكَ مَصاعِبُ الدَّربِ تَهُونُ، فَلا تَتَهاوَ، فَأَتَهاوى مَعَكَ.

يا صاحِبي...

حَياةُ الهُدوءِ لا تَعني الانعِزالَ عن الحَياةِ وَمَن حَولِكَ جَميعًا، إنَّما هِي عُزلَةٌ عَن الأَذَى فَقَط...

يا صاحِبي...

تَركُضُ في الدُّروبِ عابِرًا وَمُقيمًا، تَأخُذُكَ الخُطى مِن شَتاتٍ إلى شَتاتٍ، يَتَوَعدُكَ التِّيهُ بِاللِّقاءِ في كُلِ الأَزِقةِ،

تُواصِلُ المَسيرَ باحِثًا عَن الأَمانِ؛ إنما الأَمانُ يا صاحِبي...

تَجِدُهُ في صُبحٍ يَتَنَفسُ بِالرِّضا عَن أَقدارِ اللهِ، تَجِدُهُ فِي القُلُوبِ الهَينَةِ اللَّينَةِ، التي يُمكِنُكَ أَن تَتَوسدَها حِينَ يُنهِكُكَ التَّعَبُ...

يا صاحِبي...

احمِل أَحلامَكَ عَلى كاهِلِكَ، وَحُسنَ ظَنكَ بِرَبكَ في قَلبِكَ، وارحَل حَيثُ يُمكِنُكَ تَحقيقُها...

يا صاحِبي...

إنَّ الحَياةَ مَعارِكُ وَفُتوحاتٌ، هَزائِمُ وَانتِصاراتٌ، سَنَخوضُها بِأَكمَلِها، وَخَيرُ الحَياةِ وَما فيها أَن تُكمِلَ المَسيرَ في دُروبِها ساعِيًا لِمُبتَغاكَ، طالِبًا رِضَى اللهِ وَتَوفيقَهُ، وَبِصُحبَةِ رَفيقٍ يَكونُ بِجانِبِكَ صَفًّا لِصَفٍ في ساحَةِ الوَغى...

يا صاحِبي...

إن الحَنونَ يَبقى حَنونًا حَتى في أَصعَبِ المَواقِفِ، وإن إظهارَ الاهتِمامِ إظهارٌ لِلحُبِ...

اللَّهُمَ إن القُلوبَ بَينَ يَديكَ، قَلِبها كَما تَشاءُ، وَثَبتِ الإيمانَ بِكَ فِيها، وَثَبِت وُدَها لِمَن أَحَبها، واجبُرها جَبرًا حَسَنًا يُلائِمُ اسمَكَ الجَبارَ...

يا صاحِبي...

إن أَرَدتَ الهُروبَ إلى مَكانٍ ما، فَليَكُن إلى رَبِكَ، فَإنهُ عادِلٌ، لا يُظلَمُ عِندَهُ أَحَدٌ، رَحيمٌ عَطوفٌ، خَبيرٌ بِأَحوالِكَ.

ثُم اهرُب إلى مَن كانَ لَهُ قَلبٌ حَنونٌ، فَإنهُ وإن لَم يَفهَمكَ، سَيَتَفَهمُكَ،

وَإنكَ عَلَيهِ لا تَهونُ. وإيَّاكَ والهُروبَ لِلناصِحِ المُستَنصِحِ وأنتَ في أَسوَءِ أَحوالِكَ...

✦ ✦ ✦

(57)

"على الهامش"

كُنّا نَتَراسَلُ دائِمًا بِرَسائِلِ تَحوي بَينَ طَيّاتِها تَفاصيلَ اليَومِ، تَختَبِئ بَينَ حُروفِها أَسرارُنا.

نَتَشارَكُ فيها الآراءَ، فيما نَفقَهُ وفيما لا نَفقَهُ.

رَسَمنا بَينَ سُطورِها أَحلامَنا، وَبَكَينا فيها خيَباتِنا.

لكِنني أَبدًا لَم أَدقِّق يَومًا فيمن كانَ مِنَّا يَبدأُ بِالمُراسَلَةِ...

كُنّا نَلْتَقي بَينَ الفينَةِ والأُخرى، كانَتِ القهوةُ شاهِدًا عَلى مَجالِسِنا.

كُنّا نَسرُدُ الحِكايا والقِصَص، وهي مُلقاةٌ أَمامَنا عَلى الطّاوِلَةِ تَنصِتُ لنا.

وَيَطولُ اللِّقاءُ بِرفقَتِها، فنأنَسُ بِها وَتأنَسُ بِنا.

وَيمضي اللِّقاءُ، والضَّحِكُ يَكونُ سَيِّدَهُ.

وَعِندَ الفِراقِ، نَشرَبُ القَهوَةَ بارِدَةً في رَشفَةٍ واحِدَةٍ، كَعِقابٍ لَنا عَلى النَّميمَةِ والغيبَةِ الطَّفيفَةِ الّتي كانَت تَتَخَلَّلُ مَجلِسَنا.

ولكِنَّني أَبَدًا لَم أَنتَبِه يَومًا عَمَّن كانَ مِنَّا صاحِبَ فِكرَةِ اللِّقاءِ والمُلِحَّ في تدبيرِهِ...

هكَذا كانَ لي صَديقٌ ابتَعَدتُ عَنهُ... فابتَعَد.

(58)

نورُ نهايةِ النفق

يا صاحبي، أعلمُ أنَّ هذا العالمَ يضمُّ بينَ جناحيهِ من القسوةِ ما يُهلكُ الأرواحَ، ويجهضُ الأرحامَ، وما يَشيبُ لهُ رأسُ الرضيع، وما يُفقِدُ الحكيمَ الرَّاجحَ عقلَه، وما يُذْبِلُ الزهورَ في بساتينها، وما يُغيِّبُ الشمسَ حينَ شروقها.

لربّما كانَ نصيبُكَ من قسوتِهِ أكثرَ ممَّا تحتملهُ روحُكَ الطريَّةُ، وفؤادُكَ رقيقُ المِهاد، ولكن، يا صاحبي، الليلُ ينتهي، ونهايتُهُ نورُ النَّهار، واليأسُ يَنْقضي، ونهايتُهُ يُولِّدُ الأمل، والحربُ وإن طالت، ستنتهي، وينفلقُ السَّلامُ من بينِ قبورِ الشهداءِ.

لستُ ضدَّ عُزلتكَ عن عالمٍ مَنحكَ الألم، ولكنّني ضدَّ عزلتكَ عن الحياةِ بأكملها... فإنَّ في الحياةِ ما يستحقُّ أن نخوضَ غمارَها.

الليلُ ينتهي، والنَّهارُ نهاية،

اليأسُ ينتهي، والأملُ نهاية،

الحربُ تنتهي، والسَّلامُ نهاية،

الفِراقُ ينتهي، واللِّقاءُ نهاية،

الكُرْهُ ينتهي، والحبُّ نهاية.

ولكن، إنَّ الحبَّ لا ينتهي، ولا نهايةَ لهُ.

وإنِّي أحبُّكَ ما استطعتُ لذلكَ سبيلًا،

وإنِّي أحبُّكَ فوقَ المستطاعِ، يا صاحبًا تأنسُ بهِ الرُّوح.

(59)

"حبّذا لو نلتقي"

يا صاحبي... حبّذا لو نلتقي، ولكن، إن لم يكُن لنا في اللِّقاءِ نصيب، فاعلم أنَّ هناك قلبًا يحملُ لكَ من الودِّ ما يجعلهُ يدعو لكَ بظهرِ الغيب، وذلكَ من عَظَمةِ الحبِّ.

وما الحبُّ إلَّا مسؤوليةٌ ساميةٌ تتمثَّلُ في السُّؤالِ، والإخلاصِ، والوفاءِ، تقعُ على عاتقِ القلوبِ، ووجبَ على القلبِ أن يكونَ أهلًا لها.

واعلم أنَّ هناكَ روحًا تجذَّرَ في أعماقها وجودُكَ، وإن لم تكُنْ موجودًا.

يا صاحبي...

إنِّي ألعنُ حياةً تُباعِدُنا، وظروفًا تحولُ بينَ لقاءِنا، ولكن، لكلٍّ منَّا دَربٌ مليءٌ بالأقدارِ التي كُتِبت له، وإنِ افترقت دُروبُنا في الحياة، فإنَّ أرواحَنا تسكنُ بعضَها، وإنِ افترقتِ الأجساد.

وإنَّ عهدَ الصَّداقةِ باقٍ، وإنَّ الحبَّ باقٍ، وإنَّ الدُّعاءَ بظهرِ الغيبِ يصلُ الأرواح.

وإنِّي لأَصِلُكَ في اليومِ خمسَ مرَّات.

✦ ✦ ✦

(60)

"أقولُ صديقي..."

أقولُ صديقي...

لكنَّهُ يعرفُ أخباري من الغرباءِ!

أقولُ صديقي...

لكنَّني في وقتِ حاجتي إليه لم أعُدْ ألقاه!

أقولُ صديقي...

لكن... في حزني لم أجد منهُ المواساة!

أقولُ صديقي...

ولكن... في فرحي يلوّحُ بيدِهِ من بعيدٍ كالبقيَّةِ، وأحيانًا أبحثُ عنهُ فلا أراه، كأنَّني أصبحتُ عابرًا في حياتِهِ؟!

وهل يُصبحُ الأصدقاءُ عابرين؟

يا صاحبي...

وحقُّ الإنسانِ على الإنسانِ ألا يُؤذيه،

وليسَ الأذى اعتداءً جسديًّا أو ماديًّا فحسب، إنَّما تقديمُ النَّصيحةِ أمامَ الملأ... أذى.

والنَّقدُ المُدجَّجُ بكلماتِ الاستِنقاص... أذى.

وجحودُ الفضلِ ونُكرانُ المعروفِ لأهلِه... أذى.

التَّشكيكُ في نزاهةِ النَّزيه... أذى.

مُخالفةُ الوعدِ... أذى.

خيانةُ الأمانةِ... أذى.

إفشاءُ السِّرِّ... أذى.

الهجرُ دونَ معطياتٍ أو مُبرِّر... أذى.

والتَّمتُّرُ على ما خلقَ الله، إنَّما هو من سُوءِ الأدبِ معَ الخالق، وأذىً للمخلوق.

فإيَّاكَ يا صاحبي أن تكونَ من أصحابِ الأذى، وإيَّاكَ أن تُشعرَ أحدهم بأنَّهُ قليلُ الشَّأنِ منبوذٌ.

(61)

"لا تُبَالِ"

يا صاحِبي، من العَيبِ أن يسيرَ الإنسانُ في دَربِ الجَهلِ بينما أَنوارُ المَعرِفَةِ تُضيءُ في كلِ مَكانٍ، وسُبلُ الوصولِ إليها مُتاحَةٌ بالمَجانِ.

ومن المُشينِ أيضًا أن يُصِرَ الإنسانُ على جَهلِهِ حتى لا يعودَ يُبصِرُ النُّورَ، فيتمسكُ بِظُلَماتِهِ ويُحكِمُ على عَقلِهِ الأغلالَ.

وأما الهَلاكُ، فهو أن يَنشُرَ جَهلَهُ لمن حولَهُ، فيُصبحَ قُنبلَةً موقوتةً تُدمرُ العُقولَ وتُفسِدُ الأَفكارَ.

يا صاحِبي، المَعرِفَةُ عِمادُ بِناءِ الفَردِ وَالأمةِ، وبالجَهلِ تُدمرُ الأَوطانُ...

فلا تُبالِ، ولا تُلقِ بالًا لِسَفيهٍ ظَنَ أنهُ على حَقٍ، ولا تُجاري جاهِلًا في حِوارٍ يستعرضُ فيه "عضلاتِ غبائِه"، فكِلاهما بلا عَقلٍ، ومن لا عَقلَ له لا عَتبَ عليه.

فقط، أعرِض عن الجاهلِ والسَّفيهِ، وامضِ في سَبيلِك... تَكُن في سَلامٍ.

✦ ✦ ✦

(62)

أمانة في عُنُقك

على الإنسانِ أن يكونَ إنسانًا مُنصِفًا بِحقِ نفسِهِ، فلا يُحمِلها من المشاقِّ ما لا طاقةَ لها به.

فإنَ النفسَ أمانةٌ في أعناقِنا، وحمايتُها من الهَلاكِ مسؤوليتُنا الأولى ونحنُ نسيرُ في سبيلِ الحياة.

وما علينا إلا السَّيرُ بها نحوَ اللهِ، واجتنابُ ما فيه هَلاكَها.

دع عنها التفكيرَ المُفرِطَ، فإنَ فيه هلاكَها.

أزِح هذا الحِملَ عنها، ودع الأقدارَ تسيرُ كما شاءَ اللهُ لَها.

دع عنها مُعاتبةَ الراحِلينَ دونَ سببٍ، فإنَّ في ذلك إجهادٌ لها في غيرِ مَحلِهِ.

روِضها على تجاهُلِ السخافاتِ حتى لا تقعَ في فخِ المُجادلةِ مع السَّفيهِ.

إكسيها بالمبادئِ، فإنَ المبادئَ تستُرُ عورتَها.

كُن مُنصِّفًا لها، ولا تحشُرها بينَ زحامِ العبثِ والمشاقِ.

(63)

"العزلة"

يا صاحِبي، ليسَ هناك ما هو سيئٌ في العزلةِ..

إنما العزلةُ حقٌ شرعيٌ تمنحهُ لِنفسكِ.

إنما هي حالةٌ من الاكتفاءِ وصفقةُ سلامٍ تعقدُها مع الذاتِ.

ليسَ هُناكَ ما يخيفُ في العزلةِ، إنما هي طقوسٌ روحانيةٌ لتكونَ صديقًا وفيًا لِنفسِكَ، تسمَعُ ما لها وما عليها، تَتغنى بِمحاسِنها وتُصلحُ عيوبَها وتستُرُ عوراتَها.

ولكن يبقى الجليسُ الصالِحُ خيرًا منها.

وتبقى هي خيرًا من جليسِ السَّوءِ، وجليسِ السُّخفِ، وجليسِ الثرثرةِ...

✦ ✦ ✦

(64)

"إحفظ ما سأقول"

يا صاحِبي، لا أقولُ شيئًا جديدًا عن (الزَّمنِ)، إنما أقولُ كما يقولُ الآخرونَ.

إنَّ عجلةَ الزمنِ تمضي بِسُرعَةٍ مُخيفةٍ يا صاحِ.

فاحفظ ما سأقولهُ عني، وتذكَرني فيهِ حينَ يصلُ بي زماني إلى نقطةِ النهايةِ...

يا صاحِبي،

إنَّ لك في الحياةِ ثلاثةَ تجارِبٍ:

الأولى: عادةً ما تكونُ لتمهيدِ.

الثانيةُ: عادةً ما تكونُ تجربةً خاسرةً لأخذِ الدرسِ والموعظةِ واللجوءِ إلى أهلِ الشورى والنُصحِ.

الثالثةُ: عادةً ما تكونُ ناجمةً لرفعِ المعنوياتِ، ولينالَ قلبُكَ السلامَ والرضا.

فلا يُصِبُك في الأولى الملَلُ، ولا يتسللُ إليك اليأسُ في الثانيةِ، ولا ترتَدِ ثوبَ الغرورِ في الثالثةِ.

يا صاحِبي،

إنَّ أسبابَ الهزيمةِ ثلاثةٌ:

الأولى: الاختلافُ في الدّينِ.

الثانيةُ: المجاهرةُ بالمعاصي.

الثالثةُ: التعلقُ بالأشخاصِ.

فإنَّ في الأولى حطبُ الفتنِ،

وفي الثانيةِ استهتارٌ بسترِ اللهِ، ثمَ فقدانُ معافاتهِ عزَّ وجل،

وفي الثالثةِ ألَمٌ يلمُ بفؤادِك، وأرقٌ يجتاحُ مضجعَكَ.

يا صاحِبي،

اعلم أنَّ في مساراتِ الدُّنيا هناكَ أربعُ فتنٍ:

فتنةُ الدينِ...

فتنةُ المالِ...

فتنةُ العلمِ...

فتنةُ السُلطةِ...

عليكَ بالعصمةِ من الفتنِ:

العصمةُ من فتنةِ الدين...القرآن، والصحبةُ الصالحة.

العصمةُ من فتنةِ المال... أن تعيَ أنَ الدنيا دارُ عبورٍ وليست دارَ مقامٍ، وأنك لن تأخذَ معك منها شيئًا.

العصمةُ من فتنةِ العِلمِ... التواضعُ، وتعليمُ ما تعلمتَ لمن يحتاجهُ.

العصمةُ من فتنةِ السلطةِ... أن تُخلصَ لِلهِ في العملِ، وأن تُذكرَ نفسكَ بالآخرةِ.

يا صاحِبي،

إعلم أنَّ قيمةَ الإنسانِ تكمنُ في ثلاثة:

التقوى،

والعملِ،

والعلمِ.

التقوى طريقُ الجنةِ، والعملُ طريقُ العفةِ والكرامةِ، والعلمُ سبيلُ المجدِ والرُّقى.

(65)

"خذ استراحة محارب"

وَفي منتصفِ المعركةِ، وفي ذَروةِ الصراعِ، وأنت تحاربُ على كلِ الجَّبهاتِ...

تهاجمُ على هذا المحورِ وتدافعُ عن ذاك المحورِ.

تُطحنُ بينَ ضروسِ العتابِ واللومِ، تتعفنُ روحُك بطحلبِ التبريرِ، يضخُ قلبُك هواءَ الكتمانِ الساخنِ ليحرقَ أوصالَ الجسدِ، يتدفقُ من مسامِ جلدِك خذلانٌ منصهرٌ.

عيناكَ غائرتانِ انسكَبت منهما دموعُ ثقةٍ هشةٍ، هالاتُ الهلاكِ تحيطُ بهما...

سوسُ الجفاءِ نخرَ عظمَكَ، وقسوةُ التجاهلِ كسَرتهُ.

وتلكَ الأشياءُ التي ظننتَ أنها صغيرةٌ وتغاضيتَ عنها قد أصبَحت صخرةً كبيرةً أحنَت ظهركَ، وتقوَسَ العمودُ الفقريُ على إثرِها.

ولكن لا بأس... كلُ ما تحتاجهُ هو الانسحابُ بعيدًا عن ساحةِ المعركةِ، واتخاذُ وضعيةِ شاهدِ العيانِ.

خذ استراحةَ محاربٍ... ستكتَشفُ حينها أنك تحاربُ عبثًا...

✦ ✦ ✦

(66)

"لا مرحبًا بطارقٍ عابثٍ"

يا صاحِبي، عليكَ ألّا تمنحَ قلبَكَ للخَلقِ، لأولئكَ العابثينَ الذينَ يستنزفونَكَ حتى آخرِ رمقٍ، وآخرِ قطرةِ مشاعرَ.

افتحْ أبوابَ فؤادِكَ وقلْ لهم: اذهبوا فأنتم طُلقاءُ.

حرِّرْ أوصالَكَ من التعلُّقِ تحمِ كيانَكَ من الأذى، ثمّ املأْهُ بحبِّ الخالقِ، فمنْ وجدَ اللهَ، ماذا فَقد؟

هكذا يسكُنُكَ السلامُ.

يا صاحبي،

عليكَ أنْ تُدركَ أنَّ أوقاتَ الانشغالِ مِنْ أعظمِ نِعَمِ اللهِ وعطاياهُ.

عليكَ أنْ تُدركَ أنَّ لذّةَ الحياةِ تكمنُ في التعبِ والمجهودِ المبذولِ في سبيلِ أنْ تجدَ نفسَكَ، أن تنسجَ حلمًا يليقُ بكَ، أن تصنعَ مجدًا ينتشلكَ من عالمِ السَّفاسِفِ، ومن فوضى مجتمعٍ يرقصُ على أنغامِ الرذائلِ، ويتغذَّى على الغيبةِ والنميمةِ.

ارفعْ نفسَكَ بالتعبِ عليها علمًا وعملاً، خُلُقًا وأدبًا، إنَّ النفسَ تميلُ إلى راحتِها، وإنَّ الراحةَ تأتي بالتعبِ...

✦ ✦ ✦

(67)

"المرسل: أنا"

8:45صَباحًا بتوقيتِ المزاج

إلى... صَدِيقٍ تَرتَشِفُ الرُّوحُ مِن لُطفِهِ، دائمًا ما تُرهِقني البِداياتُ، وتَضَعُني في دَوّامةِ الحيرةِ والتَّردُّدِ، لذا أنا الآن، عندَ الساعةِ 8:45 صَباحًا، أمسِكُ بقَلَمي ولا أعلمُ من أينَ أبدأُ رِسالتي هذه.

أواجهُ صعوبةً وتعَسُّرًا في توليدِ الكلماتِ ونَسجِ شعوري من خلالها.

لَن أبدأَ بلَومِ نَفسي على هجرانِكَ، ولا بِعتابِكَ على طولِ الغِيابِ، لكنَّني هُنا، سأُترجِمُ مشاعِرَ صاغَها القَلبُ باسمِكَ.

حين طالَ غيابُكَ وانقطَعت أخبارُكَ، رُغمَ كلِّ الوسائِلِ المُتاحةِ لعَكسِ ذلك، اتَّسَعَت خريطةُ الشّوقِ في روحي، وزادت تضاريسُ الحنينِ بها، وأثقلَ هذا الشّوقُ كاهِلَ الفؤادِ.

لا أعلمُ ما الذي منعني من إزاحته رغم توافُرِ سُبلِ الاتصالِ، ربما كانَ كِبرياءُ رُوحي مُقَابِلًا لطولِ غِيابِكَ الذي لَمْ ألتمسْ له عُذرًا، ولمْ أبحثْ له عن سببٍ، أو ربما كآبةٌ حَلَّتْ بي وأصَابَتْني بِبَلاَدَةِ الشُّعورِ، أو ربما لِلسببِ ذاتهِ الذي منعكَ من الاتصالِ بي كُلَّ هذا الوقتِ.

لا يَهُمُّ... فكما أخبرتك، لا أريدُ لَومَ نَفسي، ولا أريدُ عَتَابَكَ، إنما أريدُ في هذه الرِّسالةِ أن أبعثَ إليك بما يَلُوحُ في الرُّوحِ من وحشةٍ في غِيابِكَ، ومن ذِكرياتٍ يتصفَّحُها العَقلُ لأيامٍ خَوالٍ جَمَعَتنا، ما يجعلُ القَلبَ يَضِجُّ بحبٍّ لَكَ غَيرَ مشروطٍ، لا بلقاءٍ، ولا بسؤالٍ، ولا بهديةٍ.

حينها اكتشَفتُ أنّ للقَلبِ نَبضًا يُنسَجُ باسمِكَ حتى في الغيابِ.

وإلى لِقاءٍ يُبَدِّدُ شوقي، ويُرَمِّمُ الحنينَ بحضنِ وَدٍّ... أتَمَنَّى أن تَكونَ بخيرٍ.

المرسَل: أنا

✦ ✦ ✦

(68)

"إنه لطيف"

لكَ مِنّي تَحيَّةُ الإسلامِ أوّلًا،

السلامُ عليكَ يا صاحبي...

ثُمَّ إنَّ لُطفَ اللهِ مُخبَّأٌ بينَ المشقَّاتِ، فليسَ هناكَ سبيلٌ يُعييكَ ويُشقيكَ الرَّكضُ فيهِ، إلَّا ولُطفُ اللهِ كأمنٍ في زواياه، يَلُفُّ روحَكَ بهِ كما تَلُفُّ الأمُّ في حُضنِها من كانَ في المهدِ صَغيرًا، فَيَستَكينُ فيهِ.

يا صاحبي...

لا تَحسَبنَّ أنَّكَ تَركُضُ في السُّبُلِ وحيدًا... إنَّ اللهَ مَعَكَ.

سَيرُكَ في سبيلِ الرِّزقِ مَشَقَّةٌ... فَيَفْتَحُ اللهُ لكَ أبوابَ الخَيْرِ، وهذا لُطفٌ منهُ.

سَيرُكَ في سبيلِ العِلمِ مَشَقَّةٌ... ولُطفُ اللهِ يُهوِّنُ عليكَ ما أنتَ ساعٍ إليهِ.

سَيرُكَ في سبيلِ جِهادِ نَفسِكَ مَشَقَّةٌ... وسَتْرُ اللهِ لِعُيوبِكَ لُطْفٌ منهُ.

عُيونُ اللهِ تَراكَ بلُطفٍ ورحمةٍ،

ولُطفُهُ يَسكُنُ ويُبطِنُ كُلَّ شيءٍ...

(69)

"خريف"

في لحظةٍ ما مِن فُصولِ الحياةِ، قد يُباغِتُ الإنسانَ شُعورٌ يَستَملِكُ كيانَهُ، ويُقَيِّدُهُ عنِ الحياةِ.

هكذا دونَ مُقَدِّماتٍ... هكذا دونَ مُبَرِّراتٍ... هكذا دونَ أَسبابٍ.

شُعورٌ كَجَذوَةٍ مِنَ النَّارِ تَشتَعِلُ في الرّوحِ، وصَهدُها يَسري ويَنسابُ عَبرَ الأوصالِ، وقلبٌ يَضيقُ عليهِ الكَونُ بِما رَحُبَ، فَيَختَنِقُ النَّبضُ بداخِلِهِ، وعَينٌ لا تَرى في النَّفسِ إلَّا العَيبَ، وعَقلٌ أَنهَكَتهُ أَفكارٌ سَوداويَّةٌ عَبَثيَّةٌ، مُشَرَّدَةٌ، تُوَعِّدُهُ بِالهَلاكِ، وجَسَدٌ يَسكُنُهُ الخُمولُ، بارِدٌ كَجُثَّةٍ مَيِّتٍ.

تلكَ حالَةُ هَوَسٍ وِسواسيٍّ، شَقَّ على صاحِبِها أن يَعيَ ما بِهِ، يُصارِعُ نَفسَهُ لِحَلِّ مُشكِلَةٍ يَجهَلُ لَها سَبَبًا... وعَبثًا يُحاوِلُ... فَيَزدادُ ما بِهِ سوءًا وشِدَّةً.

على الإنسانِ، بَينَ الفَينَةِ والأُخرى، أن يُمَتِّحَ نَفسَهُ الرَّاحَةَ مِن كُلِّ شيءٍ إن أَلَمَّ بِهِ هذا الشُّعورُ، وأن يَكونَ عابِرَ سَبيلٍ مُسرِعًا عَجولًا في حَياةِ الجَميعِ حتَّى لا يؤذَى ولا يُؤذي، وأنْ يَكونَ مُقيمًا، خاضِعًا، مُتَضَرِّعًا، لاجِئًا في مِحرابِ الله يَشكُو لَهُ هَمَّا، فَيَجعَلَ لَهُ مِنَ الضِّيقِ مخرَجًا، فَإِنَّهُ لا مَلجأَ مِنْهُ إِلَّا إليهِ... فَإِنَّهُ لا مَلجأَ مِنهُ إِلَّا إليهِ.

وأن يُجالِسَ مِن قَومِهِ الأَمينَ الرَّشيدَ، مَن يَمتَلِكُ رَحابَةَ الصَّدرِ، ومَن هوَ مُستَمِعٌ جَيِّدٌ، يُفَضفِضُ لَهُ مِن أَمرِهِ شَيئًا، فَيُخَفِّفُ مِنَ العِبءِ عن كاهِلِهِ ولو قَليلًا.

فإن لَم تَكُن كُفُؤًا لأن تُصافِحَ يَدَ بائِسٍ تاهَت عَنهُ بَصيرَتُهُ، فَلا تَعتَرِض طَريقَهُ بِالتَّمَلُّقِ، والفَلسَفَةِ، والنَّقدِ المُبَطَّنِ في ثوبِ النَّصيحَةِ.

(70)

"بوح المساء"

لستُ أعلمُ كيف يمكنُ للإنسانِ أن يَبتُرَ علاقةً ما مِن جُذورِها في لحظةٍ، في وقتٍ استمرت فيه هذه العلاقةُ لعقدٍ كاملٍ أو يزيد.

علاقةٌ نَمت على الاتفاقِ والتَوافُقِ، أورقت أغصانَها الذكرياتِ، وأزهرت براعِمُها حُبًّا نقيًّا.

كيف للإنسانِ، في غفلةٍ ما، وإثر زلّةٍ عابرة، أن يهدمَ عمارًا بينه وبين من يُحبُّ ومن أحبَّه؟

كيف يمكنُ أن يرحلَ دون رحيل؟

أن يهاجرَ دون هجرة؟

أن يغدو بعيدًا وهو القريب؟

أن يقفَ على الضفةِ الأخرى من الحياة، بدلًا من أن يخوضها مع من يُحب؟

يا صاحبي، يا من أَلِفَتهُ الروح...

من أدمَنت الحديثَ معه عن تفاصيل اليوم، والحديثَ معه عن أحلام الغد، والحديثَ معه عن ذكريات الأمس...

من اعتادت أَنسي بوجوده، ووِحشَتي في غيابِهِ...

من صافحته يدي في السّراءِ والضّراء، من انهمر الدمعُ من مآقيَّ لحزنه، من رقصت روحي طربًا لفرحه، من قهقهتُ بملءِ حنجرتي ضحكًا على نكاته، من كان كتفي متّكأً لرأسه، ومن كان المُهدِّئَ لخافقي المُضطَرِب، والمُرشِدَ لعقلي المتردّدِ التائِه...

لقد كنا نصنعُ شِراعِ السفينَةِ، لنخوضَ رحلة الحياة سويًّا!!...

يا صاحبي، كيف استطَعتَ أن تبدو ذاك الغَريبِ، الذي يُشيحُ بوجهِهِ عنّي؟

كيف استطعت أن تَكون! عابِرَ سبيلٍ، في الوقتِ الذي قُيِّد نُزُلًا في الفُؤادِ باسمُكَ؟

كيف اتَّخذتَ الفراقَ سبيلًا لك،

قبل أن نصلَ إلى مُفترَقِ الطُرُقاتِ؟

لِمَ العَجَلة...؟

إن غيابَكَ غير المُبرَّرُ، لا مُبَرِّرَ له سِوى المَوت...

ولكن، يا صاحِبي، وأقولُها لَكَ مِرارًا وتِكرارًا: "يا صاحِبي"، لأنَّكَ تصحَبُ الروحَ حتى في غيابِكَ، ولأن اسمُكَ مُتَّصِلٌ بروحي في دُعائِها...

لكَ السلامُ في سبيلِكَ، ولنا اللقاءُ في جنّاتِ الخُلد...

✦ ✦ ✦

(71)

"الدنيا"

#يا صاحِبِي...

هي سبيلٌ قصيرٌ سنعبره مهما طالَتْ (الدنيا)، وليس لكَ ولا لي بعد العبور سوى خيارين اثنين: إمّا الجنةُ أو النارُ.

فإني أذكرك وأذكر نفسي، وأعظُكَ وأعظُ نفسي، فإنه لا ينفع في هذا السبيل المكتظِّ بالملذات والشهوات إلا الذكرى والوعظ.

يا صاحِبِي...

تذكر أنه لا يؤمن من يُؤذي جاره...

لا يؤمن من لا يُكرم ضيفه...

لا يؤمن من لا يأمن الناس شرَّه...

وأنَّ الغيبةَ تعادل الزنا وشرب الخمر، فهي من الكبائر.

وتحدث فيما شئت إلا في أعراض الناس، فَتلكَ كبيرةٌ تغضب الله وعملٌ يُخرب البيوت.

يا صاحِبِي،

إنَّ الحياةَ دارُ إقبالٍ وإدبارٍ، حماسٍ وفتورٍ.

فإن رأيتني مُدبِرًا عن الحق والآخرة، ومُقبلًا على الدنيا الفانية، عظني.

وإن رأيتَ الفتور قد استملكني، ذَكِّرني بـ: (أنه سبيلٌ قصيرٌ سنعبره، وإن بعد العبور ليس لنا سوى خيارين اثنين، إما الجنة وإما النار).

يا صاحِبِي...

وأنتَ تعبرُ هذا السبيل، إياكَ أن تقتربَ من ثلاثة:

أموالِ الناس،

أعراضِ الناس،

دماءِ الناس.

واحْرِص حرصًا شديدًا على أن تخرجَ من الدنيا وأنتَ سالمٌ منهن.

وتذكر أن السبيلَ قصيرٌ، يا صاحِبِي...

(72)

"الحقيقة الوحيدة"

هل يُخطئ الموتُ طريقه إلى الضحية؟

قد يُؤجّلُ الموتُ لقاءه بضحيته، ولكنّه لا يعزفُ عن لقاءها أبدًا.

إنّه يسكنُ وراءَ أكتافنا، إنّه الحقيقةُ التي ألبسناها رداءَ الوهمِ ووضعناها على رفوفِ الزمن، يغطيها غبارُ التغافل.

ولكن تبقى الحقيقةُ حقيقةً مهما زيّفناها بالإكسسوار.

وأنّ الشيءَ الحقيقيَّ الوحيدَ في إكذوبة الحياةِ هو الموتُ، النهايةُ التي لا مفرَّ منها إلا إليها.

لذا على الروحِ العاقلةِ أن تتأهبَ للذي لابدَّ منه.

سيأتي يومٌ تنتهي فيه الرحلةُ وتُحطُّ فيه الرِّحال، فاختر لنفسك لقاءً يليق بك.

وتذكر أن موتَ الصالحِ راحةٌ لنفسه، وموتُ الطالحِ راحةٌ للأحياء.

ولا نجاةَ من الموتِ ولا انتصارَ لك في مواجهتها إلا بالصلاحِ في أمورِ دينك ودنياك.

رفعت الأقلامُ وجفَّت الصحفُ.

✦ ✦ ✦

(73)

"الوجه الآخر للغربة"

في غربتي...

وحدك في منفى بلا منفى، تسيرُ السبيلَ وحيدًا رغمَ الزحام.

تخوضُ حديثًا عابرًا مع العابرين.

ليلك طويلٌ دونَ قمر، تحاصرك فيه أطيافُ من تحب.

ترسمُ فيه ملامحَ ذكرياتٍ تعجُّ بصخبِ الأهلِ والأصدقاء.

وحدك تسقطُ وتنهضُ، وتنهضُ وتسقطُ، مفتقدًا في ذلك كتفَ أخيك وكفَّ صديقك.

وحدك تمرضُ وتشفى، وتشفى وتمرضُ، مفتقدًا في ذلك حنانَ أمك ورعايةَ أبيك.

وحدك تتجرعُ كؤوسَ الغربةِ المُرّة، وتتلقى صفعاتَ الحنينِ وقسوَتِهِ، مُفتَقِدًا في ذلك الوطن.

(74)

"هذا هو"

وصاحِبي لا ينقَلِب مع المُنقلبين...

يبقى هو حين يُغادِرُني الجميع...

يقول عنّي: (إن قالها فصدق).

ليس كثير الترحال...

لا يشي عنّي لأحد...

ولا يسمع عنّي ذمًّا من أحد.

صاحبي سيفي حين تُحاربني الدُنيا.

يصدقني حين يكذبني القوم.

يعرفني ولا يتعرّف عليّ.

إن رآني مظلومًا أزرني، وإن رآني ظالمًا ردعني وردّ إليّ صوابي.

وهو الأنس حين يغفو النبض في قلبي.

والصُحبة، وفاء ومواقف لا طول سنين وكثرت لقاءات.

هذا هو، عرفته حين أعاد إليّ أمانتي، وحين عادني في مرضي، وحين فك عنّي كربي.

الخاتمة

أمّا أنا...

فلا أضمنُ خطواتي في أيِّ دَرْبٍ أَسِيرُ فيه، ولكنْ أرجو من اللهِ السلامةَ فيها.

أمّا أحبّتي...

فإنَّ القلوبَ مُتَقَلِّبَةٌ في ودِّها، ولكنْ أدعو اللهَ دائمًا أن يُحِيطَهم بسُوارِ المحبَّةِ ولينِ الفؤادِ.

أمّا اليوم...

نعيشهُ ويمضي، فلنصنع فيهِ ذكرياتٍ تلامسُ الروحَ طالما سَكَنَتْها الحياةُ.

أمّا الغد...

يومٌ في علمِ الغيبِ، وإن كنا نحسبُ أنَّه مكرَّرٌ ويملؤهُ الروتينُ كاليومِ الذي يسبقه... ولكنَّهُ في علمِ الغيبِ مُؤَكَّدٌ.

ياربّ، ندركهُ بما يرضيكَ وبينَ من نحبُّ، برفقةِ قلبٍ هينٍ لينٍ لا يهينُنا ولا نهينُ عليهِ.

وعد الله بجنّة الآخرة لمن اتّقى، وسعى في الأرض بالإعمار والصلاح، وسلك فيها سُبل الخير والفلاح. فماذا عن جنة الدنيا؟ كيف تكون؟ ولمن تكون؟ هي الأُنس والونس، فلا شيء يُبهج الإنسان في هذه الدنيا، ويكون بمثابة الجنة على الأرض، أكثر من صاحبٍ مخلص، ورفيق دربٍ وفيٍّ لا يخون، يسكن اللين فؤاده، فتنعكس طيبته في طباعه، يلامس الروح بالسكينة، فيسكن إليه القلب، يُحلّي مرارة الانتظار الشاق، يغفر الزلات، ويلتمس الأعذار.

جنةُ الإنسان في دنياه... صاحبه.

فريق رواة
الفكرة والإبداع
0782644025
فريق رواة الفكرة والإبداع